الدكتور عدنان علي رضا النحوي
فلسطين
بين المنهج الرباني والواقع
دار النحوي
للنشر والتوزيع

فلسطين

بين المنهج الرباني والواقع

الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م
الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م
الطبعة الثالثة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م



دار النحوي للنشر والتوزيع
ص.ب ١٨٩١ - الرياض ١١٤٤١
هاتف وفاكس : ٤٠١٠٢٥٧
المملكة العربية السعودية

فلسطين

بين المنهج الرباني والواقع

الدكتور عدنان علي رضا النحوي

دار النحوي
للنشر والتوزيع

الافتتاح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثمّ لا تُنْصَرون ﴾ (هود : ١١٣) .

﴿ وإنّ هذه أُمتكم أُمةً واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ (المؤمنون : ٥٢) .

وعن زياد بن سودة عن أخيه أن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ قالت : يانبيّ الله ! أفتنافي بيت المقدس . فقال : « أرض المنشر والحشر ائتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة فيا سواه » . (وفي رواية كخمسمائة صلاة) . قالت أرأيت من لم يطق أن يتحمل إليه أو يأتيه . قال : « فليَهْدِ إليه زيتًا يُسْرج فيه فإنه من أهدى إليه كمن صلى فيه » (رواه أحمد) .

والسنة كما عرضناه سابقًا في كتابنا ملحمة فلسطين مع إيضاحات تزيد هنا أو هناك . ثم نوضح منزلة فلسطين في دين الله ، في الإسلام ، ونوضّح كيف أخذت فلسطين هذه المنزلة في الواقع ، في تاريخ الإنسان ، وكيف ستستمرّ هذه المنزلة حتى قيام الساعة ، وليظلّ الابتلاء والتمحيص ماضيًا في ملاحم ممتدة لا تتوقّف ، إنها ملاحم الإسلام التي تحتلّ فيها فلسطين منزلة خاصة وتؤدي دورًا خاصًا . ومن خلال هذه الملاحم الممتدّة في التاريخ تبرز المؤامرة الكبرى على الإسلام وعلى أرض الإسلام كلها في العصر الحديث ، حيث يتمّ تطويق العالم الإسلاميّ ، لتُوجَّه الضربة بعد ذلك إلى قلب العالم الإسلامي ، إلى فلسطين ، ولتسقط الخلافة الإسلامية .

وفي هذه اللحظات الحرجة تمتد المؤامرة الكبرى من خلال هوان المسلمين وضعفهم ، في سلسلة متوالية من التنازلات ! لا نستطيع أن نفصل هول اللحظات الحرجة اليوم عن غفلة المسلمين في الماضي ، عن غفلتهم التي أورثتهم هوانًا في الحاضر .

ومهما اشتدت النكبات وعظمت المآسي فلا ييأس المؤمنون الصادقون ، ويستبشرون بالنصر وهم يسعون ويبذلون

ويجاهدون على نهج مدروس جليّ وأهداف جليّة ويقين ثابت .

فلابد إذن من البحث عن معالم النهج ولابد من تحديد الأهداف ، ولابد من تمحيص التصّورات واليقين والكلمة والموقف ولابد من تحديد الأُسس التي يلتقي عليها المؤمنون في طريق ممتد إلى الجنة . إن لقاء المؤمنين هدف عظيم أمر الله المؤمنين أن يسعوا إليه ويجاهدوا من أجله . وهو حاجة مُلحّة للمسلمين اليوم في واقعهم ، أمام المؤامرة الكبرى التي تدور على الإسلام والمسلمين ، وعلى ديارهم وثرواتهم وأعراضهم ، المؤامرة الكبرى التي نشهد امتدادها في الأرض اليوم .

وفي هذه الكلمة التي نقدّمها نعرض التصّور الإيمانيّ لقضية فلسطين من القرآن والسنة ولكن هذه الصفحات لا يمكن أن تستوفي كل ما يمكن أن يُقال عن هذه القضية الكبيرة ، القضيّة الأُولى في واقع المسلمين اليوم . ولكننا نستكمل جانبًا من هذه القضية في كتاب « على أبواب القدس » و « ملحمة فلسطين » و « ملحمة الأقصى » ، لتتكامل الدراسة في هذه الكتب كلها .

ونقطة أخرى نحبُّ أن نشير إليها في هذه المقدّمة هي أن الرسالة الخاتمة لدين الإسلام تجعل الإيمان بجميع الأنبياء والرسل جزءاً من حقيقة الإيمان وجوهره ، لا نفرّق بين أحدٍ منهم في دين أو اعتقاد ، فكلهم مسلمون :

﴿ قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيُّون من ربِّهم لا نفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ (البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧) .

وعن أبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال : « مثلي في النبيين كمثل رجل بنى دارًا فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه

ويقولون لو تمّ موضع هذه اللبنة . فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة » . (رواه أحمد والترمذي وغيرهما) .

الفتح الرباني (ج : ٢١) (ص : ٢٨٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته . (ج : ٥) (ص : ٢٠٤) (حديث : ٥٧٣٣) .

هذا التصور لابد منه ونحن نقرأ الصفحات المقبلة ، ولابد أن نوضحه للناس حتى يستقيم التصور في القلوب منطلَقًا ونيّة ونهجًا .

نسأل الله العفو والعافية ، والسّداد والرشاد ، والثبات على الحق ، والعزيمة على المضي ، والمضيّ على الدرب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ، والحمد لله رب العالمين .

الرياض الدكتور عدنان علي رضا النحوي

١ / ٥ / ١٤١٢ هـ (٧ / ١١ / ١٩٩١ م) .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمـة

إن هذه الكلمة الموجزة عن قضية فلسطين جـامعة لثلاث محاضرات ألقيتها في انكلترا في المدن التالية :

لندن في ١٩ / ١ / ١٤١٢ هـ الموافق ٢٧ / ٧ / ١٩٩١ م

كارديف في ١ / ٢ / ١٤١٢ هـ الموافق ١١ / ٨ / ١٩٩١ م

مانشستر في ٧ / ٢ / ١٤١٢ هـ الموافق ١٧ / ٨ / ١٩٩١ م .

وتأتي هذه الكلمة مع أخطر الأحداث التي عرفهـا التـاريخ الإسلامي ، والتي نشاهـدهـا اليوم على سـاحـة الواقع في تتـابع سريع لمآسٍ وأهوال . لم يشهد التاريخ الإسلامي أبـدًا مثل مـا نشـاهـده اليوم من بعـد صريح عن التصّـور الإيمـاني ، وهـوان القوى المسلمة في الأمة ، وظلمة الدرب والأفق !

مـا نشـاهـده اليـوم هـو امتـداد طبيعي ونتيجـة واضحـة لأحـداث تـوالت وتتـابعت في عصرنـا الحـديث على سنن لله

ماضية وحكمة غالبة وقوة قاهرة ، لا إلـه إلا هو ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

وأهم ما نتعلمه من ذلك أن هـذه الأحـداث ابتلاء وتمحيص للنـاس كافـة ليميز الله الخبيث من الطيّب ، وللمؤمنين خـاصـة ليمحّص الله ما في الصـدور ، ويكشف مـا في النفوس ، ولتقوم الحجّة على كل إنسان يوم القيامة أو تقوم له .

إننـا نبيّن في هـذه الكلمـة أهميـة تـوحيــد التصـوّر والفهم لقضية فلسطين حتى يتوحّـد النهج والموقف ، وتتوحّـد الكلمـة والخطوة والهدف .

ونبيّن كذلك أن التصوّر الموحّـد الـذي نـدعو لـه يجب أن ينهض على أساس ثابت واضح من القرآن والسنة ، يحمل معـه الحجّة والبيّنة والدليل .

ثم نعرض هـذا التصـوّر المـوحّــد مـع حجتـه وأدلتــه من الكتاب .

فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونسأله السداد والرشاد ، والثبات على الحق والعزيمة على المضيّ ، على درب ممدود إلى الجنّة الهدف الأعلى والأسمى ، من يهد الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيءٍ عليم ، على كل شيء قدير ، فعّال لما يريد ، له الملك كله ، وله الأمر كله ، يقضي بالحق ، والذين من دونه لا يقضون بشيء .

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، بلغ الرسالة وأدّى الأمانة وترك الناس على محجّة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولا يماري فيها إلا منافق ، ولا يَصدّ عنها إلا كافر . وعاها المؤمنون وصدّقوا بها فاتبعوها خاشعين لله ، وانقلب الكافرون والمنافقون يستبدلون بها ظلام الجهل وعتمة الضلال ، ويطلعون على الناس كل يوم بلباس ، لباس من فتنة الشيطان وزخرف الأهواء ، فضلّوا وأضلوا كثيرًا .

اللهم صلّ علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم بصدق وإحسان ، ويقين وإيمان ، إلىٰ يوم الدين ، وسلّم تسليمًا كثيرًا .

أيها الإخوة الأحبّة ، أيها المؤمنون العاملون ، أيتها القلوب الخافقة بحب ربّها ورسوله ، الراكضة إلىٰ جنته ورضوانه ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من عند الله ، تحيّة تصل الدنيا بالآخرة ، وترسم النهج للطائفة الظاهرة ، وتشرق علىٰ البشرية بالسلام الصادق، والعدل والأمن ، والشرع الأمين الذي ينظمها ، تشرق بالحق وتكشف زيف الزائفين وعدوان الكافرين .

١ ـ ضرورة توحيد التصور الإيماني لقضية فلسطين :

من أصعب ما يتحدث عنه المسلم اليوم مع شدة اضطراب الواقع هو قضيّة فلسطين ، علىٰ وضوح الحق فيها ، وجلاء الحكم الأمين والمحاكمة . ولكنّ الصعوبة لا تنشأ من القضيّة

ذاتها وعدالة ميزانها ، ولكنها تنشأ من الإنسان نفسه ، الإنسان الذي وصفه القرآن الكريم فقال :

﴿ قُتِل الإنسان ما أكفره ﴾ (عبس : ١٧) ، الإنسان الذي جعل تاريخها المباشر كقضية سياسية يزيد علىٰ القرن من الزمن أو أكثر ، حتىٰ حمّلت في هذا التاريخ الطويل هرج السياسة الدولية واضطراب الحياة البشرية وصراع الأطماع في معادلة معقدة متشابكة يزيدها الشيطان وجنوده من الإنس والجن بلاء وتعقيدًا . وتنشأ الصعوبة كذلك من اضطراب التصّور لها بين أبنائها وأهلها في العالم العربي والأُمة المسلمة ، حتىٰ اختلف التصوّر بين فئة وفئة ، وبلد وبلد ، وشعب وآخر ، وجيل وجيل ، وزاد الإختلاف حتىٰ بلغ حدّ التناقض والصراع . وتنشأ الصعوبة كذلك من الظلام المفزع الدامس الذي يلفُّ واقعنا اليوم ، الواقع الذي يتلمّس فرْجة من ضياء وبصيصًا من نور ، في القلوب الصادقة مع ربها ، والعزائم المشدودة إلىٰ عهدها ، والخطا الثابتة علىٰ دربها . يتلمّس الضياء والنور فيكم أنتم أيها المؤمنون ، وفي إخوانكم الصادقين ، حيثما كانوا ، ما صدقتم الولاء لله ولاء خالصًا ينبع

منه كل ولاء آخر ، والعهد مع الله لينهض عليه كلّ عهد آخر في حياة الناس ، حين يعي المؤمنون الواقع من خلال منهاج الله ، ويعون حقيقة دربهم ونهجهم ، وجلاء أهدافهم .

ومع هذه الصعوبة فلا يزال للحديث عن قضية فلسطين سبيل وسعة . فهناك معالم لابدّ من جلائها وتأكيدها ، على الدرب الممتدّ إلى فلسطين .

وأوّل قضيّة نودّ أن نؤكّدها هي ضرورة توحيد التصوّر الإيماني ، التصوّر الفكري لقضية فلسطين ، ليكون تصوّرًا لا يقف عند الشعارات والرايات ، ولكن يدخل إلى أعماق القلوب والنفوس والعقول ، فيجمع طاقات الإنسان كلّها فكرًا وعاطفة ، وإيمانًا وموقفًا وعملاً ، ثم نهجًا واضحًا يحدّد أهدافًا واضحة ، تصورًا يربط النهج بالأهداف ، ليصبح تصوّر الطفل والمرأة والرجل ، والفرد والجماعة والأُمة كلها ، تصوّر كل الشعوب المسلمة الممزّقة ، وليربط النهْجَ والأهداف بالواقع من خلال منهاج الله ، وليُحدّد المسئوليات والواجبات والمواقف .

لقد عرف تاريخ هذه القضيّة تصوّرات متباينة متناقضة

متصارعة ، في واقع العالم العربيّ نفسه ، في واقع العالم الإسلامي ، وامتدّ التباين حتىٰ برز في داخل الإطار الإسلامي ، وتناقضت الشعارات حتىٰ في الميدان الواحد . ونما التباين حتىٰ أصبح كميّة هائلة تحتاج وحدها إلىٰ بحث وتمحيص ، لا تتسع له هذه الكلمة الموجزة . ونما التباين في التصور حتىٰ تحوّل إلىٰ صراع مكشوف ، أو تنافس مدمّر . وامتد التباين في التصوّر مع الزمن حتىٰ أضعف المواقف والخطوات ، وحتىٰ سهّل عمليات التنازل وفتح أبواب المساومة ، وسهل تطويع بعض النفوس وترويض قطاعات في الأمة .

لا بدّ من توحيد التصوّر الإيماني في قضية فلسطين ليكون هو التصور الذي يحمله الإعلام كله ، ويصوغه الأدب كله ، ونغذّي به أطفالنا ونساءنا ورجالنا ، ونمدُّ به التاريخ والأجيال ، وليكون شاهدًا لنا لا علينا ، شاهدًا علىٰ صدقِنَا بين يدي العزيز الجبار ، يوم الحساب ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتىٰ الله بقلب سليم ، قلب كانت سلامته في صدقه وإيمانه ووعيه ، يحمل التصوّر الحق الأمين ،

سليم من الأهواء فاستقام تصوّره وإيمانه ونهجه ، وانجلت أهدافه .

لقد تسلّلت القوميّة إلىٰ قلب الواقع الإسلامي ، وتسللت الإشتراكية ، وتزاحمت الرايات والشعارات في ساحات العالم الإسلامي بين ديمقراطية وشيوعية وديكتاتورية . تسللت هذه الأفكار كلها وكثير غيرها إلى النفوس في مرحلة امتدّ فيها الجهل بمنهاج الله واضطرب الإيمان والميزان ، حتىٰ اختلطت كلها في أعماق الوعي ، وانعكست لتكشف نفسها في الكلمة والرأي والموقف . لقد كان ضغط هذا التسلل رهيبًا حتىٰ انزلقت بعض الأقلام فنادت بالاشتراكية والديمقراطية ، وخلطتها وعجنتها مع الإقليمية والقوميّة ، وصبغتها بصبغة إسلامية ، وطرحتها في واقعنا السياسي وقضايانا الأساسية ، وقضية فلسطين بصورة خاصة .

من حيث الشعار قد يلتقي الكثيرون علىٰ أن فلسطين أرض مسلمة وأن الحل الصادق هو الحلّ الإسلامي وتهيج العواطف كلها وتثور النفوس تأييدًا للحلّ الإسلامي ! وهذا حق ، ولكن ما هوَ الحلّ الإسلامي ، ما هو نهجه ؟ ما هي خطواته ومراحله ؟! وما هي المسئوليات والواجبات التي تنشأ

عنه والمواقف التي تتحدد به ؟! ومن نحن ؟ وكيف نشأ حقّنا في فلسطين ومتىٰ نشأ هذا الحق ؟!. وما هي حجتنا في ذلك ؟! وكيف نخاطب العالم بها ؟!

لقد كان من أوضح آثار تسلل المناهج الغربية والشرقية إلىٰ عقولنا وأفئدتنا هو غياب الحسم والمفاصلة ، حيث يفرض الإسلام الحسم والمفاصلة . والحسم والمفاصلة لا تعني الحرب والقتال دائمًا ، ولا تعني الارتماء بالأحضان وتشابك الأيدي ، ولكن تعني استقلال النهج والممارسة ، ووضوح الأهداف ، وإلتقاء الدرب مع الأهداف إلتقاء تطمئن النفوس إليه ، حتىٰ ترى أن الدرب يوصل إلىٰ الأهداف حقًّا . وكان من أثر هذا أن اختلطت المواقف في تاريخ الأمة بين مواقف قومية وإقليمية ، واشتراكية وديمقراطية تنسلُّ في واقعنا تحت شعارات وطنية إسلامية .

من حيث الشعار قد يلتقي الكثيرون علىٰ أن فلسطين أرض مسلمة ، ولكن ما هو إسلامها ؟! متىٰ بدأ إسلامها ؟! كيف ارتبطت به ؟! وكيف تتحدد به المسئوليات والمواقف ، والنهج والأهداف ؟! ومدى التزام واقعنا اليوم بذلك كله ؟!

وإذا لم يصدق الإلتزام في واقعنا اليوم بالنهج المفصّل والأهداف ، أو إذا لم يتوافر النهج المفصّل ؛ فأين الخلل ؟! من نحن ؟! وعلىٰ أي أساس نطالب بفلسطين ؟! لابد من الإجابة علىٰ هذه الأسئلة بوضوح . فعليها وعلىٰ الإجابة تتحدد المواقف والمسئوليات ، وتلتقي الشعارات والنهج والأهداف في مسيرة مستقيمة واحده .

٢ ـ التصور الإيماني لقضية فلسطين ، أسسه ومداه :

لم يبدأ تاريخ فلسطين الإسلامي منذ أن دخلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ٢٠ ربيع الأول سنة ١٥ هـ الموافق اليوم الثاني من شهر أيار (مايو) سنة ٦٣٦ م . لم يبدأ تاريخ فلسطين الإسلامي من تلك اللحظة فحسب ، ولم تنتسب فلسطين إلىٰ الإسلام في ذلك اليوم فقط ، ولم ترتبط به عن طريق القواعد الفقهية ولا الاجتهادات البشرية ولا المواقف الآنيّة ، ولا القوة العسكرية القاهرة ، أو الفتح المشرف فحسب ، كلا ! إنها ارتبطت بالإسلام وانتسبت إليه والتحمت به قبل ذلك بقرون طويلة وآماد بعيدة . إنها ارتبطت بالإسلام وانتسبت إليه بأمر الله وبرسالة الله

وبالزحوف الممتدة علىٰ مدار التاريخ ، ارتبطت به بالإيمان والتوحيد والنبوة المتتابعة والملاحم المتصلة . هذه هي الحقيقة الأولىٰ التي يجب جلاؤها وتفصيلها وإعلانها في الأرض كلها ، ومن كل منابرها ، والتي يجب أن نغذّي بها أطفالنا وننشيء عليها رجالنا ونساءنا . هذه هي الحقيقة التي يجب أن يصوغها أدبنا شعرًا ونثرًا وقصة . والتي يجب أن تصوغ تصورنا ونهجنا وأهدافنا ـ

لقد كانت الأرض المعمورة كلها أرض إيمان وإسلام . وكان الناس عليها أمة واحدة تعبد الله ، حتى افترق الناس بعد ذلك مؤمنين وكافرين ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . وكان نوح عليه السلام أول الرسل إلىٰ الناس عند ذلك . وكان إبراهيم عليه السلام من ذرية نوح ، رسول الله ونبيه ، فانطلقت بهم الدعوة الإسلاميّة في الأرض ، وختمت النبوة بمحمد ﷺ ، وظلت الدعوة ماضية إلىٰ أن تقوم الساعة ، ابتلاء من الله وتمحيصًا للناس ، حتىٰ لا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرسل .

منذ فجر الدعوة الإسلامية ، مع إبراهيم عليه السلام ،

عادت فلسطين إلى الإسلام كما كانت من قبل والتحمت به . عادت كما كانت قبل أن يفترق الناس مؤمنين وكافرين . منذ فجر الدعوة الإسلامية أصبحت فلسطين الأرض المقدّسة بالنبوّة والرسالة وبدين الإسلام ، وأصبحت الأرض التي باركها الله وبارك حولها . منذ ذلك التاريخ البعيد أصبحت فلسطين ملك الإسلام وحق الإسلام وأمانة في عنق الأمة المسلمة الواحدة في الأرض ، الأمة المسلمة الواحدة التي تجتمع فيها النبوة كلها والرسالة كلها مع الزمن كله حتى تقوم الساعة . أصبحت فلسطين ملكًا خالصًا للإسلام وأُمته وأمانة في عنقها بأمر الله وبرسالة الإسلام وبالنبوة الممتدة مع الزمن وبنصوص القرآن والسنّة ، وبالملاحم الممتدّة مع التاريخ ، ملاحم الإسلام تنشر الحق والعدل ، والأمن والسلام ، وتحارب الفتنة والفساد ، والظلم والعدوان ، في الأرض كلها .

أصبحت فلسطين ملكًا خالصًا للإسلام وأمانة في عنق أمة الإسلام ، وبالرسالة التي خُتِمتْ بالقرآن الكريم كتابًا منزلاً من عند الله ، مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ،

وبـالنبـوة التي ختمت بمحمـد ﷺ سيـد الأنبيـاء والمرسلين وإمامهم إلىٰ يوم الدين .

فـإبراهيم عليـه السـلام هـاجر إلىٰ ربّـه ، هـاجر بـدينـه الإسلام ، هاجر إلىٰ فلسطين يحمل إليها رسالة الله . لم يهـاجر بعصبيّة جـاهليـة ولا بعِرْق وجنس . وهـاجر معـه لوط عليـه السلام بـدينـه ، لا بعرقـه وجنسـه ، بـل بـإيمـانـه وتـوحيـده بالإسلام :

﴿ ونجيناه ولوطًا إلىٰ الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ (الأنبياء : ٧١) .

﴿ وقال إني ذاهب إلىٰ ربي سيهدين ﴾ (الصافات : ٩٩) .

هاجرا إلىٰ الأرض المباركة الأرض التي حملت بركتهـا من رسـالـة الإسـلام ومن عطر النبـوة ، ومن رحمـة الله الـواسعـة وفضله الممتد عليها مع الزمن كله :

﴿ وجعلنـا بينهم وبين القرى التي بـاركنـا فيهـا قرى ظاهرة ... ﴾ (سبأ : ١٨) .

وكان دعاء إبراهيم عليه السلام إلىٰ ربّه أن يهب له الذريـة

الصالحة المؤمنة المسلمة التي تحمل رسالة الله في الأرض ، في أرض فلسطين، ثم في الأرض كلها :

﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين . ربِّ هبْ لي من الصالحين ﴾ (الصافات : ٩٩ ، ١٠٠) .

وكان دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام دعاء ماضيًا مع الزمن تردده الآفاق والأجيال والعصور :

﴿ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (البقرة : ١٢٨ ، ١٢٩) .

نعم ! « هب لي من الصالحين » ، أمة مسلمة لك » ! إنها برآءة من الشرك كله ، ومن عصبية العرق والجنس . إنه الإيمان والتوحيد ، والمفاصلة والحسم :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا

بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا حتىٰ تؤمنوا بالله وحده ... ﴾ (الممتحنة : ٤) .

« ... حتىٰ تؤمنوا بالله وحده » ! نعم هذه هي القضيّة ، وهذا هو محور قضية فلسطين . ومن هذا ينطلق التصوّر لقضية فلسطين ، وينطلق النهج ، وتتحدد المواقف والكلمات ، وتحدّد الأهداف ! نعم حتىٰ تؤمنوا بالله وحده !

ولقد جاءت هذه الآية الكريمة في سورة الممتحنة التي تبتديء بقوله سبحانه وتعالىٰ :

﴿ يأأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ... ﴾ (الممتحنة : ١) .

ثمّ يحذّر الله سبحانه وتعالىٰ المؤمنين من عصبية الجنس والدم ، من كل عصبية جاهلية :

﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾ (الممتحنة : ٣) .

« حتىٰ تؤمنوا بالله وحده ... » ! هذه هي القضيّة بكل

أبعادها وأهدافها ، هذا هو منطلق التصوّر من منهاج الله ، التصوّر الإيماني ! ولأجل هذه القضية دخل إبراهيم عليه السلام فلسطين . ثم توالىٰ الأنبياء والرسل علىٰ أرض فلسطين ، الأرض المقدّسة المباركة ، يحملون رسالة الله ودين الإسلام ، لتدور حول ذلك الملاحم عبر التاريخ ، لتزيد من عمق التصور الإيماني القائم على منهاج الله ولتُثَبِّت حق الإسلام فيها ، وحق الأمة المسلمة فيها ، عمقًا وصدقًا وأمانة .

﴿ ووصّىٰ بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ يا بنيَّ إن الله اصطفىٰ لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ (البقرة : ١٣٢) .

﴿ ... فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ ! هذه هي القضيّة ذاتها بكل أبعادها في الزمان والمكان ، والفكر والتصوّر ، والنهج والأهداف من هذا ينطلق تصوّر الإيمانِ والتوحيد لقضية فلسطين تصوُّرًا قرآنيًا تعلنه النبوّة الممتدّة والنبوّة الخاتمة ، وتبلغه إلىٰ كل الناس كافة ، وإلىٰ المؤمنين خاصة ليستيقظوا فيدركوا عظمة الأمانة وخطورة المسئولية وشدّة الحساب بين يدي العزيز الجبار .

وامتـدت هجرة إبراهيم عليـه السلام إلىٰ مكـة المكرمـة مع زوجتـه هـاجر وولـده إسماعيل ، لترتبـط دار الإسلام ارتبـاط دين ورسـالـة . ويبني إبراهيم وإسماعيل عليهما السـلام الكعبـة المشرّفة في أرض مكة ليزداد الارتباط عمقًا وتأكيـدًا . وينطلق دعـاء إبراهيم وإسماعيـل عليهما السـلام من أرض مكـة ، من الكعبـة المشرّفـة ، دعـاءً يجمـع الأزمـان والعصـور ، والأرض والـديـار ، والشعـوب والأجيـال ، يجمعهـا كلهـا أمـة مسلمـة واحدة :

﴿ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أُمة مسلمة لك وأرنا مناسكنـا وتُب علينـا إنـك أنت التواب الرحيم . ربنـا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمـة ويزكيهم إنـك أنت العزيـز الحكيم . ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ (البقرة : ١٢٨ ، ١٣١) .

دعوة يـدوّي بهـا الزمـان كلـه . إنهـا دعـوة الإسـلام ودين الإسلام . دين واحد ورب واحد ، وأمة ممتدّة واحـدة ، ونبوّة

ممتدّة تجمعها كلها ، ونبوّة خاتمة تختمها ، نبوّة محمد ﷺ .
وترتبط فلسطين بمكة المكرمة بهجرة إبراهيم عليه السلام ، وبنائه الكعبة مع ولده إسماعيل عليهما السلام ، وبالدعاء الجامع الممتد .

وتوالىٰ الأنبياء بعد إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب عليهم السلام يحملون رسالة الإسلام ودين الله ، ويثبّتون حقّ الإسلام في فلسطين وحق الأمة المسلمة :
﴿ ووصّىٰ بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنيّ إن الله اصطفىٰ لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون ﴾ (البقرة : ١٣٢ ـ ١٣٣) .

دين واحد ، ونبوّة ممتدة ، وأمة مسلمة واحدة لها وحدها الحق الصادق في فلسطين .

﴿ وجاهدوا في الله حقّ جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدًا عليكم وتكونوا

شهداء علىٰ الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولٰكم فنعم المولىٰ ونعم النصير ﴾ (الحج : ٧٨) .

إنها أمة واحدة علىٰ مدار التاريخ كله . إنها أمة الإسلام :

﴿ ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين ﴾ (آل عمران : ٦٧) .

هذه هي القضية ذاتها بكل أبعادها في المكان والزمان ، والفكر والتصوّر ، والنهج والأهداف ، والممارسة والسعي . ومن هنا ينطلق التصوّر الإيماني لقضية فلسطين ، تصورًا تعلنه النبوة الممتدّة ، وتبلغه إلىٰ العالمين حقًا من عند الله . تصورًا ينطلق من كتاب الله وسنّة نبيه محمد ﷺ ، حقًا يتنزّل به الوحي الأمين ليكون حجّة علىٰ العالمين ، وليرسم لنا اليوم دربنا إلىٰ فلسطين ، وليحدّد مسئولياتنا ومواقفنا ونهجنا ، حتىٰ نعلن نحن هذا الحق اليوم ونسمعه للعالم كله من جميع منابره ، وحتىٰ نجاهد في سبيل الله دونه حتىٰ نبلغه ونوفي بالعهد والأمانة .

وتمتدُّ نبوة الإسلام بعد إبراهيم عليه السلام ، حتىٰ يختار الله موسىٰ عليه السلام ، فيتحرك موسىٰ بقومه إلىٰ فلسطين من

مصر ، لم تحركـه عصبيـة جنس ولا عصبيـة دم ، ولا دعوة قومية ولا مصالح دنيوية . إنه أمر الله ورسالة التوحيد ودين الإسلام ، كتب الله للمؤمنين من قوم موسىٰ أن يحملوها في تلك المرحلة من التاريخ إلىٰ فلسطين ، بعد أن صَدَّ فرعونُ قومَه ، وأبىٰ وطغىٰ ، واستكبر وعلا :

﴿ فما آمن لموسىٰ إلا ذرية من قومه علىٰ خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين . وقال موسىٰ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ (يونس : ٨٣ ، ٨٤) .

﴿ ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا علىٰ أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ (المائدة : ٢١) .

ففلسطين كانت مقدسة قبل موسىٰ عليه السلام . كتب الله أن تكون دار بلاغ ورسالة وإسلام ، يحمله إليها المؤمنون من قوم موسىٰ في تلك المرحلة من التاريخ ، فإن وهنت طائفة وارتدت فقد خسرت بذلك رضاء الله فاستحقت أن تتيه في الصحراء أربعين سنة ، حتىٰ يبعث الله جيلاً من المؤمنين أصْلبّ وأشدّ ، صهرتهم الصحراء يحملون رسالة الإسلام

ويقودهم يوشع بن نون عليه السلام إلىٰ فلسطين ، فيفتح الله لهم الديار :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الشمس لم تحبس علىٰ بشر إلا ليوشع ابن نون ليالي سار إلىٰ بيت المقدس »(رواه أحمد)

لقد كانت المهمة عظيمة حتىٰ حبس الله الشمس له . لقد كان يحمل رسالة الإسلام ، وقضية الإيمان والتوحيد إلىٰ فلسطين ، ولم يكن يحمل عصبية جاهلية ولا قضية قومية .

وتوالىٰ الأنبياء في أرض فلسطين يدعون إلىٰ التوحيد الصادق ، إلىٰ ملة إبراهيم عليه السلام ، إلىٰ دين الإسلام . كذلك كان داود وسليمان وغيرهما من أنبياء الإسلام ، وكذلك كان عيسىٰ عليه السلام ، كلهم كانوا مسلمين ، يحملون رسالة الإسلام ، يبلغونها الناس ويدعونهم إليها ، ويحاربون ويجاهدون في سبيل الله لا في سبيل سواه ، ويحكمون بالإسلام لا بسواه :

﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما

استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بأياتي ثمنًا قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ (المائدة : ٤٤) .

نعم ! (... يحكم بها النبيون الذين أسلموا ...) ! هذا هو جوهر قضية فلسطين ! نبوة تتوالىٰ ، ودين الله يمتد وأمة مسلمة واحدة يبنيها الأنبياء والمرسلون :

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربُّكم فاعبدون ﴾ (الأنبياء : ٩٢) .

إنها أمة الإسلام الممتّدة في التاريخ الإنساني ، تحمل أعظم رسالة للإنسان في تاريخه كله .

وحين انحرف الناس عن دين الله ، بعث الله عيسىٰ عليه السلام ليعيد رسالة الإسلام إلىٰ أرض فلسطين ، ولتؤكد نبّوته حق الإسلام في فلسطين وحق الأمة المسلمة :

﴿ وإذ قال عيسىٰ ابن مريم يابني اسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد .... ﴾(الصف :٦) .

ومضت رسالة الإسلام في فلسطين تصارع وتجاهد ، تصارع الباطل وتدعو إلىٰ الحق ، ولتتوالىٰ الجولات والملاحم، لتأكيد حق الإسلام فيها ، وحق أمة الإسلام .

ولما ظهر الفساد في الأرض بعث الله النبوة الخاتمة ، بعث محمدًا ﷺ وأنزل معه الكتاب بالحق مصدّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه :

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .... ﴾ (المائدة : ٤٨) .

جاءت النبوة الخاتمة وجاءت معها الرسالة الجامعة منهاجًا ربانيًا متكاملاً ، ونعمة من الله تامة للناس كافة ، وكذلك لفلسطين ومن فيها حين غلب عليها الإنحراف والفساد .

فكان الإسراء أولاً ، حين أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ ، ليؤكد امتداد حق الإسلام في فلسطين ، وليؤكد ارتباط فلسطين بأرض الإسلام كلها وبمكة المكرمة ارتباطًا كانت هجرة إبراهيم عليه السلام وثقته، وليؤكد الأنبياء بذلك عهدهم الذي أخذه الله منهم ، وإقرارهم

السابق بنبوة محمد ﷺ وميثاقهم الذي وثقوه :

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثمّ جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم علىٰ ذٰلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ (آل عمران : ٨١) .

ثم انطلقت كتائب الإسلام من المدينة المنورة لتعيد الإسلام إلىٰ فلسطين وتعيد فلسطين إلىٰ الإسلام ، الىٰ أهلها وأصحابها ، إلىٰ الأمة المسلمة الواحدة التي تحمل رسالة الله في الأرض تصدق الله بها وتدعو الناس إليها .

من هذا التصور القرآني نفهم قضية فلسطين ، وندرك أن أهلها وأصحابها ومن لهم الحق فيها هم الأمة المسلمة الواحدة ، وأن فلسطين بكل قدسيتها وجلالها وبركتها جزء من دار الإسلام ، وأمانة في عنق الأمة المسلمة ، ملكًا خالصًا للإسلام والمسلمين ، ملكًا تحميه أمة قوية عزيزة ، هي خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر وتؤمن بالله لا تشرك به شيئًا أبدًا .

من هـذا التصوّرة فقـط تتحـدّد المسئـوليـات والـواجبـات والمـواقف ، ويتحــدّد النهـج والأهــداف ، وتقـوم العـلاقــات والروابط . إن هــذا التصور لا ينشأ ليحقق مصلحـة طـائفـة أو قوم ، ولكنهـا مصلحـة الإنسـان ، حتىٰ يستطيع الإسـلام ، وتستطيع أمـة الإسلام ، أن تمضي في الـوفـاء بعهـدهـا مـع الله وأداء رسالتها في الحياة الدنيا وأمانتها التي ستحاسب عليها من أجـل هــذا كلــه ، من أجـل الخير والحــق ، يجب أن تظــل فلسطين دارًا للإسلام وملكًا للأمـة المسلمـة الواحـدة التي تحمل رسـالـة الله إلىٰ عبـاده . إنهـا حكمـة الله ومشيئتــه ، وأمره إلىٰ عبـاده المـؤمنين ، ليكـون في ذلـك ابتـلاء وتمحيص لهم . إنهــا مسئولية كل مسلم في الأرض ، وليست مسئولية قطر محدود أو شعب محدود .

٣ ـ منزلـة فلسطين في دين الله ، وفي تـاريـخ الإنسـان الممتد حتى قيام السـاعة :

لماذا أخذت فلسطين هذا البعد العظيم في دين الله : أنبيـاء ورسل يتوالون فيها ، أنبياء يهاجرون إليها ، وأنبيـاء يولـدون فيها ، وأنبياء يُبْعَثُون فيها ، وعيسىٰ عليه السلام يرفع منهـا ،

وموسىٰ عليه السلام يتحرك إليها مع قومه المسلمين ، ويوشع ابن نون يدخلها فاتحًا باسم الإسلام ، وأنبياء يحكمون فيها ، ومحمد ﷺ أسري به إليها ومنها عرج به إلىٰ السماء ، وكتائب المؤمنين ممتدة مع الزمن كله وملاحمهم فيها تدور ولا تهدأ .

إنها دعوة ربّانيّة ممتدة فيها مع التاريخ ، فارتبطت فلسطين بها وارتبطت بالإسلام ، وارتبطت بأرض الإسلام وبأمة الإسلام ارتباط عهد وميثاق ، وارتباط أمانة ووفاء . إنها حكمة لله غالبة ومشيئته ماضية ، نحاول أن نتلمس بعض ظلالها من خلال منهاج الله ، ومن خلال الواقع البشري الذي نردّه إلىٰ منهاج الله ونفهمه من خلاله .

لقد خصّ الله فلسطين بموقع وسط متميّز ، ظهر تميزه في تاريخ الإنسان منذ أقدم العصور حتىٰ يومنا هذا ، وسيظل هذا التميّز ظاهرة ثابتة في تاريخ الإنسان حتىٰ تقوم الساعة ابتلاء من الله للشعوب وتمحيصًا لها ، حتىٰ تقوم الحجة علىٰ الناس يوم القيامة أو تقوم لهم .

جعل الله فلسطين بحكمته مفتاح الشرق فما من أمة حاولت أن تغزو الشرق إلا مرت بها ، وتركت بعض آثارها

في صراع طويل وملاحم متصلة . وجعل الله من موقعها هذا ما يسهّل الحركة منها إلىٰ جميع الجهات ، لتصل القارات وتربط البحر والبرّ . وجعلها الله أرضًا غنية ، متنوعة في طبيعتها ، فمن جو حار إلىٰ جو معتدل إلىٰ جو بارد ، ومن واد غائر إلىٰ سهل منبسط ، إلىٰ قمم شاهقة . كل هذا في بقعة صغيرة لا تزيد مساحتها عن (٢٧٠٠٠ كم٢) .

لعلّ هذا الموقع العظيم سهّل ارتباطها مع سائر بلاد الشام ومع الجزيرة العربية ، ليكون هذا الموقع أعظم موقع في الأرض ، يحمل أعظم رسالة ، ولتخرج منه أعظم أمة علىٰ مدار التاريخ : أرض الإسلام وداره ، رسالة الإسلام وأمة الإسلام . ولتكون هذه الأمة بهذه الرسالة في هذا الموقع شهداء علىٰ الناس :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء علىٰ الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب علىٰ عقبيه ... ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ... ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

إن أرض فلسطين حاجة ماسة لدار الإسلام . فإن كانت مفتاح الشرق كله من ناحية ، فهي مفتاح دار الإسلام من ناحية أخرى . فإذا سقطت فلسطين بيد أعداء الله أصبحت ديار المسلمين كلها مهددة بالسقوط . ولقد جعل الله من فلسطين ساحة ابتلاء وتمحيص ، تشير الآية السابقة إليه :**﴿ .... وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ... ﴾** .

لقد برز هذا التميز لأرض فلسطين في الواقع التاريخي لها . لقد دار الصراع فيها على أوسع مدى ، وهبّت إليها الشعوب كلها : الكلدانيون والسوماريون والبابليون والفرس واليونان والرومان ، وقبائل شتى من الأرض ، لتدور فيها الملاحم المتواصلة وليخوض الإسلام فيها أعظم معاركه وأخطر جولاته . ويعرض لنا القرآن الكريم نماذج من هذه الجولات : هجرة إبراهيم ولوط عليهما السلام ، زحف موسى وقومه إليها وتيههم في الصحراء ، زحف يوشع بن نون عليه السلام ، كما

سبق أن ذكرنا ، طالوت وصراعه مع جالوت ، داود وسليمان وما خاضاه من دعوة وجهاد ، عيسىٰ عليه السلام ، ثم النبّوة الخاتمة وزحف جنودها إلىٰ أرض فلسطين .

وظلّ الإسلام يخوض أقسىٰ معاركه فيها ضد الغزاة المتتابعين ، وفي الحروب الصليبية ، في جهاد كريم ممتد ، وسيظل ممتدًا حتىٰ تقوم الساعة ، ليمثل هذا الجهاد قضية واحدة مهما تنوعت أسماؤها ، هي قضية الإيمان والتوحيد في أرض فلسطين . ولم يكن هذا الصراع لينحصر في أرض فلسطين بطبيعة الحال ، ولكنه امتّد إلىٰ حولها امتداد دار الإسلام وساحات الإيمان ففي عهد الخلافة العثمانية كانت تسمىٰ « المسألة الشرقية » ، واليوم يسمونها قضية « الشرق الأوسط » . والقضية واحدة ممتدة مع التاريخ .

إنه صراع الإيمان والتوحيد مع الشرك بمختلف ألوانه . إنهم يسمونه أحيانًا صراعًا بين « الحضارات » ، ليزكي المشركون أنفسهم ويعلوا من شأن فسادهم فيسمونه « حضارة » إنه صراع بين الحق والباطل ، امتّد واتسع وأخذ جميع أشكال الصراع : فمن صراع القنا والرماح والقنابل والمدافع ، إلىٰ صراع الفكر

والعقيـدة ، إلىٰ صراع العلم والثقـافـة ، والكلمـة والأدب ، والسياسة ، وصراع الاقتصاد والمال والمصالح المتشابكة . لقد شهدت فلسطين جميع أنواع هذا الصراع الذي امتّد حتىٰ يومنا هذا بأشكاله المختلفة ، ليجد الإسلام اليوم أعظم تحدٍّ عرفه التاريخ ، وأخطر مرحلة يمر بها المسلمون ، ابتلاء منه سبحانه وتعالىٰ .

ومن خلال هذه الملاحم الممتدة ظهرت أمارات واضحة تستحق الوقوف عندها . فقد يكون الصراع ، كما نرى في التاريخ البشري ، بين فئتين ظالمتين ، يكتب الله فيها النصر لمن يشاء علىٰ حكمة غالبة له . أما إذا كان مع المؤمنين فلابدّ أن تتوافر فيهم خصائص محددة أمر الله بها حتىٰ يتنزّل النصر عليهم . فحين تحرك موسىٰ بقومه لم يكتب الله لهم أن يدخلوا فلسطين وإيمانهم متردد ضعيف ، حتىٰ قالوا : ﴿ .... فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ (المائدة : ٢٤) . فتاهوا في الصحراء أربعين سنة طوت الجيل الضعيف وأخرجت الجيل المؤمن الشديد القوي الذي يستطيع أن يحمل رسالة الله ، وكذلك حين تحرّك طالوت بالجنود ابتلاهم الله ومحّصهم

ابتلاء ، حتىٰ خلص الصف المؤمن من الضعفاء والمترددين ، وحتىٰ صفا من الوهن والنفاق ، وبقي الذين ﴿ يظنون أنهم ملاقوا الله ﴾ (البقرة : ٢٤٩) . هؤلاء هم الذين كتب الله لهم النصر.

وسيمتدّ هذا الصراع علىٰ أرض فلسطين وفي بلاد الشام حتىٰ تقوم الساعة . ولعل الله أطلع رسوله ﷺ علىٰ مستقبل هذا الصراع ، فجاءت الأحاديث الشريفة لتوجه المؤمنين إلىٰ حقيقته وجوهره ليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ويحموا دينهم وديارهم وثرواتهم وأعراضهم ، وليكونوا أبدا مستنفرين واعين متأهبين لجهاد طويل . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتىٰ يقاتل المسلمون اليهود . فيقتلهم المسلمون حتىٰ يختبيء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يامسلم ! ياعبد الله هذا يهوديّ خلفي فتعال فاقتله إلا شجر الغرقد فإنه من شجر يهود) . (رواه مسلم) .

يصوّر لنا الحديث الشريف حقيقة الصراع والملحمة : « ... حتىٰ يقاتل المسلمون اليهود ... » لم يقل الحديث حتىٰ يقاتل الفلسطينيونَ ، ولا السوريون ، ولا قومية من القوميات . إنها معركة الإسلام . حتىٰ الحجر والشجر يدرك

حقيقة المعركة ويفهمها وينادي : يامسلم ياعبد الله ! لم يناد ياعربي يا فلسطيني ياغزّي ياخليليّ ! نادى يامسلم ياعبد الله . تصوير رائع دقيق لحقيقة الصراع الدائر على مدى الزمن ، ولا يعني الحديث الشريف أنه لن يكون هناك جولات أخرى صادقة للمسلمين إلا هذه . ولا يعني الحديث الشريف أن ينام المسلمون اليوم حتى يأتي زمن ذلك الصراع . لا ! فالصراع مستمر لا يهدأ المسلمون الصادقون دونه ، ولا يتركون الأمانة التي وضعها الله في أعناقهم ، إلا إذا فتنوا وخسروا طاعة الله . ولا يعني الحديث الشريف أن سلاح المؤمنين هو الحجر وحده . ولكن أمر الله يظل ماضيًا مع الزمن كله : ﴿ .... وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدّو الله وعدوّكم ... ﴾ (الأنفال : ٦٠) . نعم ترهبون به عدّو الله وعدّوكم ! عجبًا كيف يدرك الحجر والشجر حقيقة المعركة في أرض فلسطين ولا يدركها بعض الناس .

وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ : « بينا أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي فظننت أنه

مذهوب به . فأتبعته بصري فعمد به إلىٰ الشام ألا وإن الإيمان حيث تقع الفتن بالشام » (أخرجه أحمد) .

تصوير نبويّ دقيق لامتداد ملحمة الإسلام : « ... ألا وإن الإيمان حيث تقع الفتن بالشام » ، الإيمان معناه وجوهره وامتحانه وابتلاؤه هناك حيث تقع الفتن ، حيث يخوض الإسلام جولاته في بلاد الشام . وبلاد الشام فلسطين وسوريا ولبنان والأردن . إلىٰ هناك توجّه النبوّة أنظار المسلمين ، إلىٰ هناك ! حيث تدور ملاحم الإسلام وصراع الإيمان مع الشرك صراعًا ماضيًا مع الزمن حتىٰ تقوم الساعة . إلىٰ هناك ! حيث امتدت أطماع الغزاة والمعتدين عبر التاريخ ، وحيث تمتد أطماعهم مع الزمن حتىٰ تقوم الساعة . إلىٰ هناك ! حيث تتداعىٰ الأمم كما تتداعىٰ الأكلة علىٰ قصعتها . إلىٰ هناك وتمضي النبوّة لتؤكد هذا التوجيه العظيم في حديث بعد حديث ، ليحشد المؤمنون طاقاتهم هناك ، هناك ، في أرض فلسطين وحيث تدور الفتن في بلاد الشام .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله

ﷺ « لا تشدُّ الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد : مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصىٰ » (رواه مسلم) .

ويلح الرسول ﷺ علىٰ هذا الحشد والرباط في أرض فلسطين حتىٰ لا يبقىٰ لمسلم عذر :

فعن أبي أمامة الباهلي قال قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الدين ظاهرين لعدوّهم قاهرين ، لا يضرّهم من خالفهم ولا ما أصابهم من لأواء حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم كذلك » قالوا يارسول الله وأين هم ؟ قال : « ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس » (أخرجه أحمد) .

إنه تصوير النبوة وتوجيهها العظيم لتندفع كتائب المؤمنين إلىٰ هناك . وانظر كيف جاء التعبير ليؤكد قضية الإسلام والإيمان والتوحيد في كل لفظة وكلمة : « طائفة من أمتي » ! أمة الإسلام الواحدة التي تحمل رسالة الله : « علىٰ الدين ظاهرين » ! إنها ليست قضية وطنية ولا إقليمية ولا قومية . إنها قضية مفاصلة وحسم ، إنها قضية الإيمان والتوحيد فحسب .

وعن زياد بن سوده عن أخيه أن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ قالت يانبيّ الله ! أفتنا في بيت المقدس ، فقال : « أرض المنشر والمحشر ائتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه . قالت أرأيت من لم يطق أن يتحمل إليه أو يأتيه . قال : فليهد إليه زيتًا يسرج فيه فإنه من أهدى كمن صلىٰ فيه » وفي رواية أخرى : خمسمائة صلاة . (رواه أحمد) .

نعم إنها أرض المنشر والمحشر ، وأرض الرباط والملاحم ، وأرض الصراع المستمر ، ليحمل هذا الصراع أعظم بعد إنساني وأجلّ رسالة حملها الإنسان أبدًا .

وستمتد هذه الملاحم حتىٰ تقوم الساعة . ففيها يَقْتُل عيسىٰ عليه السلام الدّجّالَ . فعن النّواس بن سمعان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « .... فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ... » إلىٰ أن يقول : « ... فيطلبه حتىٰ يدركه بباب لُدٍّ فيقتله » .

٤ ـ دور فلسطين في ملحمة الإسلام :

ويؤكد رسول الله ﷺ امتداد الصراع في أرض فلسطين في أحاديث متعددة ، تلحُّ كلها على أهمية الرباط فيها ، وخطورة التهاون في شأنها ، وربط ذلك كله بالإيمان ، بدين الإسلام ورسالته .

فعن عبد الله بن عمرو قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « ستكون هجرة بعد هجرة . فخيار أهل الأرض ألزمهم مُهاجَر إبراهيم . ويبقى في الأرض شرار أهلها ، تلفظهم أرضوهم ، تقذرهم نفس الله ، وتحشرهم مع القردة والخنازير » (رواه أبو داود في كتاب الجهاد) .

نعم ! ستكون هجرة بعد هجرة . ويهاجر الناس لهذا السبب أو ذاك . ولكن الهجرة الحقّة تكون في سبيل الله ، لا الدنيا ولا لفزع ولا لالتماس التجارة . وخير الناس من يلزم مهاجَر إبراهيم عليه السلام ، ليرابط فيها ولينصر دين الله ويحمي أمة الإسلام في أخطر ثغر لها ، وأعظم باب من أبوابها .

إلحاح علىٰ الرباط وتأكيد علىٰ الجهاد . آيات بيّنات وأحاديث شريفة ، تطرق كلها القضية ذاتها من جوانبها المختلفة ، وتشير إلىٰ هناك ، إلىٰ أرض فلسطين .

ملاحم ممتدة في أرض فلسطين منذ أقدم العصور حتىٰ تقوم الساعة . صراع يحمل كل أنواع الصراع وجميع أشكال القوى في تاريخ الإنسان . صراع يمتدّ منها إلىٰ أرض الإسلام كلها ، لترتبط معركة الإسلام وميادينه كلها في الأرض ، لتكون معركة واحدة .

لقد امتدت معركة الإسلام مع بعثة النبي ﷺ في مكة المكرّمة . وامتدّ الصراع إلىٰ أرض فلسطين حين حملت جنود الإسلام رسالة الإسلام وكلمة الحقّ إلىٰ فلسطين . وامتد الصراع مع الزمن . وكان أعداء الإسلام يعلّقون أبصارهم علىٰ فلسطين في كل صراع خاضوه وأثاروه . حتىٰ كانت الحروب الصليبية تمثل صورة واضحة من هذا الصراع الذي انتهىٰ في تلك المرحلة بانتصار صلاح الدين الأيوبي ، وهو يقود أمة واحدة هي أمة الإسلام ، فدحر الصليبيين المعتدين الظالمين ،

وأخرجهم من أرض فلسطين ، وعــادت فلسطين إلىٰ أهلهــا المسلمين وأصحابها المؤمنين .

ولكن أعــداء الإســلام ظلــوا يعــدون العُــدة ويضعــون الخطط ، ويجمعون خبرة القرون السالفـة ويطوّرون أسـاليب مكرهم ، وكيدهم ،وهم يحاربون الإسلام في كلّ موقف وميـدان يستطيعون دخوله وأنظارهم كلهم معلقة هناك علىٰ فلسطين .

وبدأ تخطيط الأعداء يأخذ صورة جديدة ، ويجتاز مرحلة متطــورة حين سقطت الأنــدلس ، جــوهرة دار الإســلام في ميــدانــه الغربي سنـــة ٨٩٨ هـ (١٤٩٢ م) ، حين سقطت غرنـاطــة آخر قلعــة للمسلمين في الأنــدلس ، بعــد أن استقرّ الإسلام فيها قرابة ثمانية قرون .

ومضىٰ كيــد الأعــداء ومكرهم ينمــو ويتطــور في معظم الجبهات ، والجبهات كلهـا تنظر إلىٰ فلسطين . وفي الوقت نفسـه كان الإسلام ماضيًا في جهاده ، يحقق نصرًا هنا ونصرًا هناك برحمة الله وفضله . فقـد تم فتح القسطنطينيـة علىٰ يـد محمـد الفـاتح سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) ، وقام حكم الخلافة العثمـانيـة المسلمـة

ليجمع رقعة واسعة من أرض الإسلام . وقامت دولة المغول المسلمة في الهند ٩٣٢ هـ (١٢٥٦ م) .

ولكن الأعداء لم ييأسوا ومضت حكمة الله ليمتدّ الصراع بين الإسلام وأعداء الله ، علىٰ ابتلاء شديد . وأخذ كيد الكافرين يمتدّ ويتسع علىٰ جميع الجبهات في وقت واحد .

فاحتلت البرتغال بعض المواقع علىٰ ساحل إفريقيا الشرقي ، واحتلت عدن ومضيق هرمز والبحرين والقطيف . ولكن الإنجليز نافسوهم علىٰ هذه المواقع فتقلّص نفوذ البرتغال وامتد نفوذ الإنجليز فيها . ونافس الإنجليز الهولنديين الذين احتلوا أندونيسيا ، فسيطرت هولندا علىٰ القسم الجنوبي من جزيرة بورنيو ، وسيطر الإنجليز علىٰ الجزء الشمالي منها ، واحتلوا الملايو قبل ذلك . وتدور معارك طويلة في جنوب شرقي آسيا ، بين المعتدين المتنافسين أنفسهم ، وكذلك بينهم وبين المسلمين ، وظلت قلوب هؤلاء المعتدين الغازين معلقة علىٰ قلب العالم الإسلامي كله .

يخاطب القائد البرتغالي « البوكرك » جنوده وهو يحضهم علىٰ القتال في معركة « مالقّا » سنة (١٥٠٩ م) في جنوب

شرق آسيا فيقول : « الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التي تقدمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد ونخمد نار الطائفة المحمدية إلىٰ الأبد ... » هذه هي الدعوى الكاذبة التي تخفي وراءها الصليبيون قبل ذلك ، والتي يتخفىٰ وراءها البرتغاليون تقودهم الأطماع ذاتها التي سرعان ما يكشفها القائد البرتغالي في الخطاب نفسه حين يقول : « وأنا شديد الحماسة لهذه النتيجة فإذا استطعنا الوصول إليها فسيترك ، المسلمون الهند كلها لنا . وإن غالبية المسلمين ، وربما كلهم ، يعيشون علىٰ تجارة هذه البلاد ، ولقد اعتنوا بها وأصبحوا أصحاب ثروات ضخمة ، ومالقا هي مركزهم الرئيسي فمنها ينقلون كل عام التوابل والأدوية إلىٰ بلادهم دون أن نستطيع منعهم ... » . إذن هي التجارة والمال والدنيا يلهثون وراءها عادين معتدين ، وغازين ظالمين ، يُغلّفون عدوانهم وظلمهم بغلاف كاذب خادع من الدين . ثم يقول القائد البرتغالي : « إذا استطعنا تخليص « مالقا » من أيديهم ستنهار القاهرة وبعدها تنهار مكة نهائيًا » .

إذن لم يكن هذا القائد البرتغالي يتحدّث في كلمته هذه

عن معركة واحدة ، ولا عن صراع البرتغال وحدها . إنه يتحدث عن مخطّط عام وكيد واسع يلتقي عليه المجرمون في الأرض ليحاربوا دين الله ، وينهبوا خيرات دار الإسلام ، وليتجهوا بذلك كله إلىٰ القدس ، إلىٰ فلسطين ، ليتحكموا بعد ذلك بمصير العالم الإسلامي وثرواته كلها منها ، من فلسطين ، مفتاح الشرق كله ، ومفتاح العالم الإسلامي . واستمرت معركة « مالقا » ست سنين .

٥ ـ فلسطين والمؤامرة الكبرى لحصار العالم الإسلامي وإسقاط الخلافة الإسلامية :

وسقطت مالقد سنة (١٥١٥ م) بيد البرتغالين ، فأقامت روما قدّاس شكر . وذكر أحدهم في خطبته أمام ليو العاشر : « إن هذه المعركة ستسهل استعادة القدس » إذن إلىٰ هناك ! إلى فلسطين ! إلىٰ القدس ! تتجه أنظار أعداء الله حيثما كانت المعركة ! وتظل جبهة المشركين واحدة أمام هذا الهدف مهما تنافسوا الدنيا وتنازعوها . فبالرغم من الصراع الشديد بين هؤلاء كلهم علىٰ ثروات العالم الإسلامي إلا أنهم كلهم ينظرون إلىٰ

فلسطين ، باب الشرق ومفتاحه ، باب العالم الإسلامي وقلبه .

وظلّ الإنجليز يحومون حول الهند حيث تقوم دولة المغول المسلمة ، ودار كيدهم ومكرهم تقوده شركة الهند الشرقية الإنجليزية التي تأسست في لندن سنة (١٦٠٠ م) . فأنشأت مراكز تجارية لها في مدراس وبومباي وكلكتا وغيرها من المدن الهندية ، تحت ظل حكم قوي مزدهر للمسلمين ، غفل عن مخطط الإنجليز ، فمنحهم تسهيلات تجارية واسعة . ولما قوي نفوذ الإنجليز ونشروا الفساد والفتنة بين الناس في الهند وضعت شركة الهند الشرقية الإنجليزية يدها على معظم ولايات الهند ، ثمّ صدر قرار بنقل السلطة منها إلى يد الحكومة البريطانية التي عينت أول حكم بريطاني للهند سنة ١٨٥٨ م . وسقطت جوهرة العالم الإسلامي في ميدانه الشرقي ، كما سبق أن سقطت الأندلس ، جوهرة العالم الإسلامي في ميدانه الغربي . ومضت انكلترا تمدّ من نفوذها وتساهم مساهمة كبيرة في ضرب الحصار حول العالم الإسلامي وبث الفتنة في داخله . واحتلت مصر السودان ، وفرضت حمايتها على الكويت والبحرين وعدن وغيرها .

واحتلت فرنسا خلال القرن التاسع عشر الجزائر وتونس والسنغال والنيجر وساحل العاج . واحتلت روسيا القوقاز وطشقند وسمرقند وبخاري وأوزبكستان وخوكند ، وتحتل إيطاليا ليبيا وأرتيريا . ونشطت الجمعيات التنصيرية في قلب أفريقيا وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وفي فلسطين خاصة ، تمهّد للجيوش التي تتأهب والجريمة إلىٰ يُعدُّ لها ، وكذلك كانت تفعل الشركات التجارية . وما كاد القرن التاسع عشر ينتهي حتىٰ كان العالم الإسلامي محاصرًا حصارًا شديدًا . وقد أشار أحد مفكري البرتغال في القرن السادس عشر إلىٰ أهمية هذا الحصار الذي مضىٰ منذ ذلك العهد ، أشار إليه في رسالته للملك البرتغال مانويل ، يقول : « إن البوكرك يقاتل ضد محمد ... ، وبقدر ما « لمالقّا » من فائدة دنيوية فإن لها نفس الفائدة الدينية ، فإن محمدًا محاصر ، ولا يستطيع أن يتوسع بعد الآن ... بل سيهرب بأسرع ما يمكن » خسيءَ وذل ! فمحمد ﷺ منتصر أبدًا وجنده ماضون علىٰ عزة ونصره .

ومضت مشيئة الله علىٰ حكمة له غالبة . واشتد الحصار حول الخلافة الإسلامية ، وامتدت الفتنة داخلها يغذيها أعداء

الله ، مستفدين من أمور خطيرة في واقع العالم الإسلامي آنذاك : الجهل بكتاب الله وسنة نبيه والجهل بالواقع ، والأهواء الثائرة والشهوات الدنيوية المشتعلة ، والعصبيات الجاهلية الملتهبة ، والصراع الداخلي والمؤامرات ، مع غفلة واسعة بين المسلمين .

وامتد الكيد المدبر تلتقي عليه الأطماع والشهوات ، والأحقاد التي يثيرها المجرمون في الأرض ، ليخدروا الناس ويصرفوهم عن الحق ويدفعوهم إلىٰ الضلال والعدوان والظلم ، تحت شعارات الإنسانية والديمقراطية والإشتراكية ، وفتنة الوطنية الجاهلية والعصبية القومية . وامتد الكيد المدبر بعد هذا الحصار الطويل علىٰ العالم الإسلامي ، حتىٰ وجه الضربة المحكمة في أوائل القرن العشرين إلىٰ قلب العالم الإسلامي كله ، فسقطت الخلافة ، واحتل المجرمون فلسطين وبلاد الشام والعراق وغيرها ، وتقاسموها غنيمة كبيرة في معاهدة سايكس بيكو ، ثم سلموا فلسطين إلىٰ اليهود ، ليقيموا دولتهم فيها ، وليطردوا شعبها منها ، بأبشع أنواع الكذب والغدر ، والكيد والمكر . وبدأت قضية فلسطين تخوض ملحمة جديدة .

لقد كان أقسىٰ ما في هذه المأساة الواسعة الممتدة من الأندلس إلىٰ الهند ، إلىٰ كل بلد مسلم ، هو غفلة المسلمين أنفسهم ، وجهلهم الواسع بواقعهم وبدينهم ، حتىٰ كانوا هم القوة الحقيقيّة التي نفذت كيد الأعداء ، حين اضطرب الإيمان والتوحيد في الصدور ، وجف العلم في القلوب ، واضطرب الميزان ، واختلط الولاء ، فما عاد الولاء خالصًا لله ، ولا عاد نابعًا من صفاء التوحيد وغناء العلم بمنهاج الله . فسارع كثير من المسلمين إلىٰ موالاة أعدائهم من فزع أو وهن أو من شهوة من شهوات الدنيا يرجونها عند هؤلاء وهؤلاء ، وكأنما يصدق فيهم قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ **فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشىٰ أن تصيبنا دائرة فعسىٰ الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا علىٰ ما أسروا في أنفسهم نادمين** ﴾ (المائدة : ٥٢) .

ومن خلال هذه الغفلة استطاع الأعداء أن يقسّموا العالم الإسلامي إلىٰ أقطار ودول . وأصبح كلُّ قطر يتغنّىٰ بأمجاده القطرية وحدوده التي رسمها له عدوه . وتغنّىٰ بهذه الحدود الطفل والمرأة والرجل والشيخ ، ونشط الأدب والإعلام

والقوانين ليثبت هذا كله التجزئة في الفكر والقلوب . ورضي المسلمون بذلك وصاغوا حياتهم علىٰ أساس التجزئة ، ونهجوا نهجها . وما قامت ثورة ولا ضجّ نشيد ، ولا انتفض أدب إلا علىٰ أساس قومي وطني حتىٰ ولو كان الشعار إسلاميًا ، وتغلغلت الروح القومية والوطنية في واقع الفكر الإسلامي ، وامتدت هذه الظاهرة نامية في تاريخنا الحديث إلىٰ يومنا هذا علىٰ صورة عجيبة لم يشهدها التاريخ الإسلامي أبدًا . ففي جميع مراحل التاريخ الإسلامي كان الأدب لا يتحدث إلا عن المعركة بين الإسلام والكفر مهما كانت شدة تمزّق العالم الإسلامي ، وما كنت تجد الشعر القومي مهما امتدّ النزاع .

منذ ذلك الوقت في تاريخنا الحديث أصبح المسلمون في مختلف مستوياتهم وصياغتهم كانوا يتعاملون مع قضية فلسطين علىٰ أساس وطني قومي إقليمي ، حتىٰ ولو رفع شعار الإسلام . وما كنت تجد التصوّر الإيماني الذي عرضناه في الصفحات السابقة مطروحًا في واقعنا ، لا بين أنفسنا ، ولا في بنائنا وتربيتنا ، ولا علىٰ الصعيد الدولي . ولقد كان التصور للقضية مختلفًا بين فئة وفئة ، وبلد وبلد ، ورجل ورجل ،

وجيل وجيل ، وكان التفاوت يزداد مع الزمن ، وكنا نتسابق في المحافل الدولية لنعرض حقنا في فلسطين من خلال القانون الدولي حينًا ، وحينًا آخر من خلال التاريخ أو من خلال الفتوحات العسكرية ، أو من خلال اجتهادات ضيقة مخنوقة . وما عرضنا حجّة القرآن ولا صيغة الإيمان . وكان علىٰ الطرف الآخر اليهود يعرضون حجتهم من التوراة المحرّفة حجة باطلة محرفة . خاطبوا بها العالم في إصرار وإلحاح حتىٰ صدّقهم العالم أو ادعىٰ تصديقهم . وظلّ لليهود تصورٌ باطل واحد ، تصور ثابت يجتمعون كلهم عليه مهما اختلفت أحزابهم أو حكوماتهم . ونحن نستحي أن نعلن حجة القرآن أو تصور الإيمان ، حتىٰ صار لنا ألف تصور ، كأننا لا نكاد نؤمن بحق لنا في فلسطين . أصرّوا علىٰ كذبهم حتىٰ صدّقهم الناس ونصروهم ، وتهاونّا في حقنا الصادق حتىٰ ضاع . ويقول قائل كيف تخاطب الناس بالقرآن وهم لا يؤمنون به ؟! عجبًا لهذا القول والقرآن نزل ليخاطب الذين لا يؤمنون ، وليقيم الحجة عليهم وليبطل دعواهم كلها ، وليثبّت المؤمنين الصادقين . فحجة القرآن هي الحجة الصادقة والبرهان من عند الله حجة ماضية مع الزمن وبرهان مشرق بالنور .

٦ ـ فلسطين بين خدعة السلام وهوان المسلمين :

مع هذه اللحظات التاريخية تنتقل قضية فلسطين ، أو يراد لها أن تنتقل إلىٰ مؤتمر السلام الذي أعلن عنه أنه سيتم في أكتوبر تشرين الأول سنة ١٩٩١ م [١] ودعوى السلام دعوى قديمة في قضية فلسطين بدأها الحزب الشيوعي في فلسطين منذ نشوئه ، واليسار العربي وصحيفة عصبة التحرر الوطني ، يدعون كلهم إلىٰ السلام بين العرب واليهود منذ العشرينات والثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ، وامتدت الدعوة مع التاريخ ، واليهود يعدون العدة ويبنون السلاح وينظّمون كيانهم اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا ، ودعوة السلام تمتد بين العرب والمسلمين وهم في تهاون وتنازل واستسلام . منذ الخمسينات ظهرت الدعوة العلنية للسلام خارج اليسار العربي . يُصرّح أحمد الشقيري في اجتماع اللجنة السياسية

(١) لقد تمّ انعقاد مؤتمر السلام في جولته الأولى في مدريد يوم الأربعاء في ٢٣ / ٤ / ١٤١٢ هـ الموافق ٣٠ / ١٠ / ١٩٩١ م .
وانعقدت جولة ثانية في واشنطن في يوم الثلاثاء في ٤ / ٦ / ١٤١٢ هـ الموافق ١٠ / ١٢ / ١٩٩١ م . ومن خلال هاتين الجولتين تبين بوضوح صدق ما ورد في هذا البحث من أن الحلول المطروحة تحمل من الإلهاء والتخدير أكثر مما تحمل من جدّية ورغبة في حل ، وتحمل الإهانة والإذلال والباطل .

العامة في جامعة الدول العربية في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٥٢ م بقوله : « إننا نلتزم بقرارات الأمم المتحدة » .

ويؤكد تصريحه ويعيده ويكرره في ١٤ كانون الأول سنة ١٩٦٢ م . وفي دورة هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٥٢ م يصرح بقوله : « وإني أود أن أعلن بصراحة بأننا نقبل المباحثات المباشرة . بل إني مستعد للتفاوض مع أي شخص كان يحترم الميثاق ومقررات الأمم المتحدة » .

وقبل ذلك بكثير ، حضر إلى القدس وفد عربي من فلسطين ومصر ليشاركوا في افتتاح الجامعة العبرية في القدس في أول نيسان سنة ١٩٢٥ م .

ويضطرب التصور ويضيق لقضية فلسطين مع الزمن ليصبح أكثر اضطرابًا وضيقًا مع كل مرحلة جديدة ، ولتصبح قضية فلسطين قضية وطنية إقليمية ، لا قضية إسلامية إيمانية . ففي مؤتمر القمة العربي الأول ، وفي بيانه التاريخي الصادر في ١٧ كانون الثاني ، يناير سنة ١٩٦٤ م جاء : « ... أو في ميدان تنظيم الشعب الفلسطيني وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه وتقرير مصيره » فالقضية إذن أصبحت في هذه المرحلة

مع نهاية سنة ١٩٦٤ م قضية شعب فلسطين ، وقضية تحرير وطن ، وغاب شعار العروبة وانطوى شعار الإسلام . أصبحت قضية فلسطين في هذه المرحلة قضية الشعب الفلسطيني خلافًا لما كانت عليه سنة ١٩٤٨ م ، حين عُزل الشعب الفلسطيني عن القضية ، الآن تصبح القضية قضية الشعب الفلسطيني ليواجه وحدة دولة اليهود من ورائها العالم كله . الآن حين استقرت دولة اليهود ونمت عُدَّتُها وأصبحت ترسانة أسلحة في المنطقة كلها ، وأصبح الشعب الفلسطيني أضعف من أن يجابه هذه الدولة والعالم وحده ، أما حين كان شعب فلسطين كله في أرضه سنة ١٩٤٨ م ، وكان أقدر علىٰ مجابهة اليهود لو قدم له المال والسلاح والإعداد ، في تلك المرحلة عَزل الشعب الفلسطيني عن قضيته ، ودخلت الجيوش العربية لتساهم في « الضياع » لا في «الإنقاذ» ، ولتساهم في عزل قوى الأمة عن معالجة قضيتها.

وفي سنة ١٩٦٥ م يصرح عبد الناصر لمجلة « ريالتي » الفرنسية : « على الفلسطنيين أن يقوموا ابتداء من الآن بتحقيق رغباتهم . وجميع البلدان العربية مؤيدة إلىٰ أقصىٰ حد ما ستقوم به هذه المنظمة التي لها جيش يتولىٰ تدريبه وتجهيزه الدول العربية وعندما تستكمل المنظمة استعدادها

سوف تشرع في العمل من أجل تطبيق مقررات الأمم المتحـدة في فلسطين وبحقوق العرب في فلسطين » إذن منذ ذلك العهـد قامت المؤسسات لتنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحـدة بعيـدًا عن التصور الإيماني لقضية فلسطين .

وقبـل ذلـك في مـؤتمر بـانـدونـج سنـة ١٩٥٥ م جـاء في مقرراته : « .... تعلن النـدوة الإفريقيـة الآسيويـة تـأييـدهـا لحقـوق الشعب الفلسطيني وتطـالب بتطبيـق مقررات هيئـة الأمم المتحدة وتحقيق حل سلمي » .

إذن لم يكن التصوّر الذي عرضناه في الصفحـات السـابقـة مطروحًا لا هنا ولا هناك ، ولم يكن أحد يتبنّاه في السـاحـة العربية أو الإسلامية أو الدوليـة . وهـذا مؤتمر بـانـدونج يحصر القضيـة في الشعب العربي الفلسطيني ومقررات الأمم المتحـدة وبتحقيـق الحـل السلمي . هـذه هي المقـدسـات الجـديـدة التي دخلـت سـاحـة القضيـة الفلسطينيـة ، وحلّت محـل التصـوّر الإيمانيّ القرآني الرّبانيّ الذي كان غائبًا أصلاً عن الساحة ، وعن ميـادين حيـاة المسلمين : ميـادين التربيـة والبنـاء ، ميـادين الإعلام،ميادين الأدب ، ميادين السياسة والاقتصاد وغيرها .

صدرت هذه المقررات والتصريحات كلها وكثير غيرها ، فأين كان المسلمون ؟! وكم كانت الغفوة والغفلة ، واضطراب التصوّر ، وامتداد الجهل ، وغلبة الأهواء ؟ وامتد التصور الوطني والقومي والإقليمي في واقع المسلمين امتدادًا واسعًا ، لا من حيث الشعار فحسب ، ولكن من حيث الممارسة والتطبيق ، يحمل معه العصبيات الجاهلية ، وربّما تزين هذا التصوّر بشعارات إسلامية وتخفّت العصبيات الجاهلية خلفها!.

وأصبحت السياسة في واقع المسلمين ، في مختلف مستوياتهم وأحوالهم ، سياسة لا تقوم علىٰ قواعد ربّانية . لقد أصبح هنالك انفصال واسع بين التصوّر الإيماني والموقف السياسي علىٰ مدى واسع من الزمان في واقعنا . لقد أصبح هناك أكثر من انفصال ، لقد أصبح هنالك تناقض يزاد قوة وإلحاحًا مع الزمن ، حتىٰ أصبح التصوّر الإيماني يبدو عجيبًا غريبًا مستهجنًا أحيانًا ، وحتىٰ أصبح التناقض معه نهج سياسة يتبناه الإعلام حتىٰ ألفه قطاع واسع من المسلمين ورضوا به ، إما قناعة وانحرافًا ، وإما زعمًا من بعضهم بأنه « تكتيك » وفن السياسة ، ومهارة مناورة . وفشل « التكتيك » وإنهار الفنّ ، وخابت المهارة والمناورة ، وعدنا بعد قرن أو أكثر نجرّ ذيول

الخسارة والضياع .

ولو رجعنا إلىٰ مناهج الأمة كلها لا نجد التصوّر الإيماني الذي عرضناه مطروحًا فيها ، في نصوصها أو في روحها ، إلا ما كانت تعرضه الهيئة العربية العليا لفلسطين والحاج أمين الحسيني ومن معه من إخوانه بين شعارات الإسلام والعروبة : أما من حيث الممارسة فقد ظلت في نطاق التصوّر الإقليمي ، ولم تنجح محاولات الحاج أمين الحسيني لنقلها إلىٰ الصعيد الإسلامي من حيث الممارسة والجهد . وظلت الأحداث تجري ، كل حدث يمهّد للذي يليه علىٰ سنن لله غالبة وحكمة لله ماضية . ولم ينجح اشتراك أعداد من المجاهدين المؤمنين من الأقطار العربية المجاورة سنة ١٩٤٨ م في نقل القضية إلىٰ مستوى الأمة المسلمة ، ونجح الأعداء في ضرب هذه المحاولات كلها من خلال وهن الأمة وجهلها . وكان من أهم أسباب ذلك أننا قابلنا التخطيط المحكم للأعداء بالإرتجال وقابلنا إصرارهم علىٰ باطلهم بسلسلة من التنازلات .

ومع هذه اللحظات التاريخية من واقعنا اليوم ، تتجه قضية فلسطين إلىٰ مؤتمر السلام ، إلىٰ مصير مظلم مجهول ، من

خلال تغيُّر هائل في السياسة الدولية ، ومن خلال هجرة مئات الآلاف من يهود الاتحاد السوفياتي إلىٰ فلسطين ، وهجرة يهود الفلاشا من الحبشة إلىٰ فلسطين ، علىٰ مرأى « العدالة الدولية » المزعومة والواقع العربي المفتّت والواقع الإسلامي المنهار . ثمَّ تقع أزمة الخليج !

وأزمة الخليج زلزال مدمر هزّ العالم الإسلامي كله ، وهزَّ جميع الأطراف فيها ، وغيّر كثيرًا من الأوضاع تغيرًا سيظل ممتدًا إلىٰ زمن بعيد لا يعلمه إلا الله . ولن ينحصر أثر هذا الزلزال في المنطقة وحدها ، ولكنه سيمتد إلىٰ العالم كله ، وإلىٰ ساحات واسعة فيه ، ساحات اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية وعسكرية وأخلاقية .

من خلال هذا التاريخ الموجز الذي عرضنا بعض ملامحه ، ومن خلال هذه الأحداث الهائلة علىٰ الصعيد الدولي وفي العالم الإسلامي ، من خلال هذا كله تتجه قضية فلسطين إلىٰ مؤتمر السلام المعلن عنه . فهل سيتم مؤتمر السلام ، أم أن عوائق جديدة ستثور هنا وهناك ، أم مداراة من جميع الأطراف أو

بعضهـا ، واستسـلام ؟! كل ذلـك ممكن لا نستطيـع أن نجزم بشيء منه . وإذا تمّ فهل سيحقق أهدافه المعلن عنها ؟!.

إن احتمال تعطُّل المؤتمر أو مضيه أمران واردان في ضباب الواقع وغيومه الكثيرة ، وشدة الضغوط . ذلك لأن القضية كلها تحوّلت الآن إلىٰ الخلاف حول من سيمثل فلسطين ، وهل يجوز أن يشترك أحد من العرب من القدس ؟! تاريخ آلاف السنين من جهاد الأنبياء والمرسلين ، وجهاد الأُمة المسلمة فيها ، يُطوى وتُخْنَق القضية بهذا الخلاف . ويتسابق الكثيرون لحل هذا الخلاف بهذه الصورة أو تلك . وهل ستكون فرحة كبيرة للمسلمين لو أذن اليهود للفلسطيين أن يحضر ممثلوهم ؟!

واحتمال تعطل المؤتمر وارد ولكنه ليس حتميًا . ذلك لأن قضية فلسطين أبرزت ظاهرة فريدة في التاريخ السياسي ، وفي ميدان المفاوضات والحلول والمقترحات ، ذلك أن كل ما عرفته القضية من مقترحات وحلول في تاريخها الطويل ، لم يكن يقصد به أصحابه التنفيذ . وإنما كانوا يقصدون أن تكون مستهلكة للجهد والوقت مفرغة للعاطفة والحماسة ، مضللة

للفكر والتصور ، مصدر إلهاء وإشغال ، ومصدر تخدير ووهم . فهي تشغل الناس فترة ، ثم تطوى حين ينتهي دورها ، ليعلن عن مقترحات جديدة و « ممثل » دولي مثل « يارنغ » جديد ، يطير بين واشنطن والشرق ، ذهابًا وإيابًا ، تملأ الإعلام كله حركاته ، وتلعب المقترحات الجديدة الدور الذي لعبته المقترحات قبلها ، وهكذا تستمر الأحداثُ حتىٰ يفاجيء الناسَ حلٌ مطويٌّ خفيٌّ فيصعقهم ! هذا منهج السياسة في قضية فلسطين خلال السنين الطويلة الماضية .

فالعون الذي تلّقاه اليهود من الإنجليز ومن دول العالم مع أوائل القرن العشرين كان خُطة مخفيّة لا تكشف ما وراءها . وقيام دولة لليهود كان غير ما كانت تحمله الوعود والمقترحات . وخروج أهل فلسطين من ديارهم كان مفاجأة لهم وللمسلمين عامة ، وهم غافلون عما يجري حولهم في ديارهم غفلة لا عذر لهم بها ! وامتداد دولة اليهود حتىٰ تأخذ ثلاثة أرباع أرض فلسطين كان خلافًا لقرارات هيئة الأُمم المتحدة وخلافًا للاقتراحات والحلول . واحتلالها لكل فلسطين بعد ذلك ، ثم لأجزاء من سوريا ولبنان وغيرهما كان مفاجأة مغايرة لكل القرارات والحلول والبيانات والمناورات . وإصرار

اليهود الآن علىٰ شعاراتهم وحقوقهم المزعومة الممتدّة إلىٰ أنحاء العالم الإسلامي إصرار يتكرر بكل عنف ، لا يخفّفه أو يخفيه إلا مناورات دهاقنة الفتنة والفساد في الأرض ، وخداع الدول الكبرى للأمة المسلمة .

أما أهداف المؤتمر ! فما هي أهدافه ؟ فإن كان ما يُعلن عنه من إنهاء النزاع بين اليهود والمسلمين ، فلا نعتقد أنهم جادّون في تحقيق هذا الهدف ، ولا نعتقد أن المؤتمر قادر علىٰ تنفيذه لأسباب كثيرة أهمها :

أولاً : إن اليهود لم تنته أطماعهم بعد . وإنهم مازالوا يخططون للتوسع والإمتداد . وقد تجاوزوا فلسطين كلها واحتلوا أجزاء من مصر وسوريا ولبنان بالإضافة إلىٰ كل فلسطين . وقد أعلنوا أنهم لن يسلموا الضفة والقطاع لأي حكم!

ثانيًا : إن الغرب لم تنته أطماعه بعد . وقد أقام دولة اليهود وأيدها بكل جهده لضخامة أطماعه في العالم الإسلامي كله . فدعوى السلام التي يرددونها لها مفهوم ومعنىٰ غير ما يتصوره الرأي العام . فدعوى السلام عندهم لا تقوم علىٰ تسوية النزاع . فلو سُوّيَ النزاع ضاعت مصالحهم وأُغلقت

مصانعهم ، واضطرب اقتصادهم ، لأن كيانهم يقوم علىٰ سحق الإنسان واستغلاله !. إن معنى السلام لديهم معنى غريب يوضحه حديث رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق الذي سنذكره بعد قليل .

ثالثًا : إن هذه اللحظات التاريخية من واقعنا اليوم ، وقد كشفت انهيار الكتلة الشرقية ، فإنها تؤكد ما كشفته القرون السابقة والقرن العشرون خاصة من فشل الحضارة الغربية في معالجة قضايا الإنسان علىٰ الأرض ، فشلت كلها وبكل أبعادها ، لِتَناقُض موازينها وبروز ظلمها وهول طغيانها . فلقد لجأت الحضارة الغربية في القرن العشرين خاصة إلىٰ أدنىٰ أساليب الحضارة وأقسىٰ أساليب الإجرام . لقد استهلت الحضارة الغربية القرن العشرين بالكذب والخداع علىٰ غرار معاهدة سايكس بيكو ، وبالإجرام الوحشي في الحرب العالمية الأولىٰ ، وذروة الخداع في وعد بلفور ، وذروة الوحشية في فلسطين وفي الغازات النووية علىٰ هيروشيما وناجازاكي ، وفي غيرها من ضحاياها في الأرض كلها . وطلعت الحضارة الغربية مع نهاية القرن العشرين بالمؤامرات والكذب والخداع ، وبالوحشية الفتاكة في كل ديار المسلمين خاصة ، وفي الأرض

عامة . وبين بداية القرن ونهايته أشعلت الحضارة الغربية في الأرض (١٣٢) حربًا تجاوز عدد ضحاياها من القتلىٰ (١٢٠) مليونًا من البشر ، خلاف ضحايا المرض والفقر والجوع والتشوية والعجز .

رابعًا : إن أساس النزاع هو عدوان اليهود الظالم ، وعدوان دول الغرب والشرق علىٰ دار الإسلام ، واحتلالهم أرضًا ليست لهم وادعاؤهم الباطل أنها لهم . إن فلسطين ملك الإسلام والمسلمين شبرًا شبرًا ، وإن هذا اليقين جزء لا يتجزّأ من الإيمان والتوحيد ، وجزء لا يتجزّأ من منهاج الله . فلا مجال للسلام إلا أن يعود الحق لأصحابه كاملاً دون ظلم ، والحق هو فلسطين كلها لتكون جزءًا من دار الإسلام وليكون شعبُها جزءًا من أمة الإسلام الواحدة في الأرض . أو أن يُسلم اليهود ومن وراءهم لدين الله الواحد ـ وهو الإسلام ـ ، « ... ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » [1] . ويخضعوا جميعًا لحكم الله ومنهاج الله . هذا هو طريق السلام الذي رسمه الإسلام ، وهذا هو القرآن الكريم وآياته ، وهذه أحاديث رسول الله ﷺ ، هذه كلها هي

---

(١) سورة آل عمران : ٨٥ .

حجتنا كما عرضنا قبسات منها في الصفحات السابقة . وإن ضعف المسلمين اليوم وهوانهم لا يبدّل حكم الإسلام ولا يغيّر من آيات الله وأحاديث رسوله محمد ﷺ .

إن جميع مظاهر الرقيّ الفنيّ والتقدم العلمي فشلت في أن توقف الإجرام والفتك وامتداد مآسي الإنسان في الأرض ، وفشلت في أن تنزع من حياته القلق والفزع ومسالك الهلاك ، بين انحلال خلقي منتشر يتحدى شريعة الله ، ومخدّرات تملأ حياة الإنسان وتسحقه ، وزنًا ولواط وخمر ونساء ، وفواحش يمارسها الناس علانية ويُحلُّها القانون ، حتىٰ أصبحت هذه الحضارة تمثل عمليًا مجتمع الجريمة بمختلف أشكالها ومجتمع الظلم والعدوان علىٰ الشعوب ، والاستكبار في الأرض . وهذا كله يحمل بذور انهيار الحضارة الغربية ، ويدعو المسلمين لينهضوا ليحملوا أمانتهم في الأرض في صد الفساد ونشر الصلاح . ولنا في كتاب الله آيات بينّات تعرض سنن الله في الحياة ، سننًا ماضية مع الأقوام كلها ، فلنستمع لقبسات منها .

﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ،

ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (العنكبوت : ٤٠) .

فستمضي سنن الله علىٰ الحضارة الغربية كما مضت علىٰ غيرها . لقد أخذ الله قوم لوط فجعل عاليها سافلها وأمطر عليهم مطرًا من سجيل منضود لأنهم كانوا يأتون فاحشة اللواط ، وأغرق قوم فرعون حين استكبر فرعون واستخف قومه فأطاعوه ، وأرسل علىٰ مدين الرجفة لأنهم أفسدوا في الأرض . والحضارة الغربية جمعت الفواحش كلها والفساد كله . فإن لم يهتدوا وقد بلغتهم الرسالة ، فستمضي عليهم سنة الله حيثما قامت الحضارة ، وتحت أي شعار تَخفّت فيه ، فإنه لا يخفىٰ علىٰ الله شيء أبدًا . وما تمرّ به اليوم إن هو إلا فتنة وابتلاء ليمحّص الله الذين آمنوا وليميز الله الخبيث من الطيب .

يعبّر نيكسون رئيس الولايات المتحدة السابق عن فهم الحضارة الغربية لدعوى السلام فيقول : « ليس السلم الحقيقي إنهاء المنازعات بل السلم هو وسيلة التعايش معها » نعم ! هذه عقليتهم ! لا يريدون للنزاعات تسوية أبدًا ، فإذا توقّف الصراع في الأرض توقفت المصانع وانهارت الحضارة ، وحين

دعا نيكسون إسرائيل للدخول في مفاوضات مع العرب لإحلال السلام ، فإنه يعني إحلال السلام كما يفهمه وكما عرّفه لنا . ويقول نيكسون : « إن رياح التغيير في العالم الثالث تكتسب قوة العاصفة . ونحن لن نستطيع إيقافها . لكننا نستطيع تغيير اتجاهها » ويقول : « إن الشيوعيين والإسلاميين أعداء تقليديون يجمعهم هدف مشترك هو الحصول علىٰ السلطة بأي وسيلة لفرض سيطرة دكتاتورية تقوم علىٰ مُثُلهم التى لا تحتمل . وأحدهما سيسود مالم يضع الغرب سياسة موحدة لمواجهة الأبعاد الاقتصادية والروحية علىٰ حد سواءٰ » .

وحين دخلت القوات الروسية أفغانستان علق أنور السادات وقال : « لقد بدأت المعركة حول مخازن البترول » وعلق بعد ذلك نيكسون علىٰ قول أنور السادات فقال : « هذا صحيح تمامًا » .

ويقول أحد المسئولين في الغرب « نريد أن يصحح الخطأ الذي ارتكبه الله » ـ تعالىٰ الله عما يقولون علوّا كبيرًا وسبحان الله ـ « حين جعل البترول في أرض المسلمين » .

وتمتد المعركة ، معركة الأطماع حول مخازن البترول وحول

مخازن الثروات الهائلة في العالم الإسلامي ، تمتد المعركة في أشكال متعددة من الظلم والعدوان ، والفساد والإجرام .

لا نستطيع أن نفهم خطورة اللحظات التاريخية من واقعنا اليوم إلا حين نربطها بالماضي ، لنرى كيف أن كل حدث كان يمهد للحدث الذي يليه ، ولنرى كيف كان أعداؤنا ينشطون علىٰ أساس مخطط مدروس محدد يسيرون عليه ، ولنرى سنن الله كيف تمضي في الحياة سننًا ثابتة علىٰ الغافلين النائمين ، وعلىٰ المفسدين المجرمين ، وعلىٰ الضعفاء المستكينين ، والضعفاء المجاهدين ، والمستكبرين المعتدين .

٧ ـ امتداد المؤامرة وارتباط مآسي اليوم بغفلة الماضي وهوان الحاضر :

لا نستطيع أن نفصل اللحظات التاريخية الحرجة اليوم عن الماضي وأحداثه ، لنأخذ العبرة ، ولتكون يقظتنا اليوم ، إن أردنا أن نستيقظ ونفيق وننهض ، لتكون يقظتنا واعية قوية . ولنرد ذلك كله إلىٰ منهاج الله ردًا أمينًا عن صدق إيمان وصدق علم . لقد امتدت قضية فلسطين منذ ذلك العهد الموغل في التآمر ، حتى قام لليهود فيها دولة يدعمها ويحميها

كل قوى العدوان والظلم في الأرض ، وكل قوى الفتنة والفساد والإجرام .

لقد كانت فلسطين ميدان صراع في القرن العشرين بين جبهتين : جبهة المسلمين من ناحية وجبهة أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمشركين من ناحية أخرى . ولقد التقت مصالح الجبهة الثانية هذه في أرض فلسطين ، حتىٰ دعموا كلهم اليهود دعمًا ظالمًا باطلاً بالمال والسلاح والرجال ، وبالرأي والتخطيط . وظلت هذه الجبهة مع ما بينها من تنافس وصراع علىٰ الدنيا ، ظلت صفًّا واحدًا بالنسبة لقضية فلسطين .

أما المسلمون فقد كانوا صفًّا ممزّقًا استشرى الداء في داخل الأمة حتىٰ سهل علىٰ الأعداء تمزيقها كما عرضنا سابقًا . ولقد خسر المسلمون جولاتهم في فلسطين في هذه المرحلة الخطيرة من التاريخ ، وظلوا ينتقلون من تنازل إلىٰ تنازل ، ومن هزيمة إلىٰ هزيمة . لقد كانت فلسطين نقطة لقاء مصالح هؤلاء ، ونقطة تفرّقنا وتمزُّقنا .

وكان أول تنازل شهدته الأمة هو تنازل فريق واسع عن التصوّر الإيماني لهذه القضية ، حين لم تعد فلسطين مطلبًا إسلاميًا ولا قضية إسلامية . وارتبطت القضية بالعروبة شعارًا احتلّ قطاعًا واسعًا من الأمة منفردًا حينًا ، ومختلطًا مع الإسلام حينًا آخر ، ثم كان التنازل الآخر حين أصبح الشعار أن فلسطين جزء من سوريا ، وعلىٰ ذلك أصبحت المطالبة فيها في تنازل واضح وهزيمة مكشوفة . وامتدّ التنازل حين أصبحنا ننادي بأن فلسطين كلها بلد واحد مستقل ، وغابت روابط الإسلام والعروبة وروابط بلاد الشام . وامتد التنازل حتىٰ صرنا نطالب بالضفة الغربية وقطاع غزة ، ثم يمضي التنازل ، كما نراه في واقعنا اليوم ، ممتدًا إلىٰ اتجاهات خطيرة تهدد العالم الإسلامي كله . وفي الوقت نفسه كانت تتصاعد أطماع اليهود ومواليهم مع كل تنازل منا ، وكانت تشتد جرأة وعدوانًا وظلمًا ، تحت شعارات كاذبة من الإنسانية والقانون الدولي ، وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن . ومع هذه التنازلات المتلاحقة خسرنا رضاء الله ومدده وعونه حين فارقنا نهجه وفرّطنا في الأمانة ، وما كسبنا رضاء الناس ولا

عونهم ولا احترامهم ، ولا بنينا أنفسنا ولا أعددنا قوتنا لجولة صادقة . ومرّ الصراع والمواجهة المباشرة علىٰ أرض فلسطين علىٰ مراحل . كانت المرحلة الأولىٰ حين تصدّى الشعب الفلسطيني وحده للانتداب البريطاني واليهود معًا في صراع امتد من (١٩٢٠ م - ١٩٤٨) . وكان العالم العربي والإسلامي في الوقت نفسه يعاني من التمزّق والانقسام الذي رسمه عدوه ، فرضي به العالم الإسلامي وشغل عن الدعم الفعّال لقضية فلسطين ، وشغل كل قطر بما فتحه عليه الانقسام وسقوط الخلافة من هموم . وظل الشعب الفلسطيني وحده في الميدان حتىٰ قامت لليهود دولة يرعاها الإنجليز ثم سائر القوى الدولية . وبدأت مرحلة جديدة من الصراع ، كان من الممكن أن يتولاه الشعب الفلسطيني إذا أُمِدّ بالمال والسلاح والتدريب ، وكان احتمال النصر العسكري المادي ممكنًا لو صدقت عزائم الجميع وتوحّد النهج . فوجود الشعب الفلسطيني في أرضه يوفر عنصرًا هامًا من عناصر نجاح القتال . ولكن الجهود آنذاك رفضت هذا النهج وأصرت علىٰ محاولة عزل الشعب الفلسطيني ، وإدخال الجيوش العربية والمتطوعين العرب تحت اسم جيش الإنقاذ ،

الذي كان دوره الحقيقي تسليم فلسطين أو جزء كبير منها إلىٰ اليهود بدلاً من تحريرها . واستمرت القضية تدور بين أيدي الدول العربية مع عزل الشعب الفلسطيني عن قضية فلسطين وغياب الشعوب الإسلامية . وكانت دولة اليهود مازالت في مرحلة النشوء والتطور ، مهدَّدة من أي عمل حقيقي جاد يخرج من الأمة . وفي جميع هذه المراحل لم يكن التصوّر الإيمانيُّ الذي عرضناه مطروحًا !

ولما أصبحت دولة اليهود راسخة نسبيًا ، نامية العدة والسلاح ، وتجاوزت قوتها قدرة الشعب الفلسطيني وحده ، هنا في هذه المرحلة الجديدة عادت قضية فلسطين إلىٰ أيدي الفلسطينيين تحت شعارات الوطنية والإقليمية ، وليتقدم الشعب الفلسطيني الصفوف ، ولتتولىٰ الدول العربية تكوين جيش خاص به ومنظمة خاصة به لتنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة . وتستمر هذه المرحلة منذ سنة (١٩٦٥ م ـ ١٩٩١ م) لتشهد عددًا من الهزائم ، ولتشهد تنازلا تجاوز كل التنازلات ، تنازلاً نقل القضية إلىٰ مرحلة جديدة ، فإلىٰ أين ؟!

أصبحت دولة اليهود الآن ترسانة أسلحة للعالم الغربي ، وللولايات المتحدة بالدرجة الأولىٰ ، يدعمها العالم الغربي والشرقي . أصبحت تبني النشاط النووي وتطور الأسلحة المدمرة ، وتبني القوة العسكرية الكاسحة ، والدول العربية من حولها في نزاع وشقاق ، وضعف وهوان ، وفتن لا تهدأ فيها ليل نهار .

ولقد اتضح من تاريخ هذه القضية خلال أكثر من قرن أن حلول التسوية التي كانت تُطرح لم تكن تهدف إلىٰ التنفيذ ولكن إلىٰ الإلهاء والتخدير والتمهيد للخطوة المطوية والضربة المخفيّة ، حتىٰ تفاجيء الناس فتصعقهم . واتضح أن وراء ذلك كله أطماعًا وأحقادًا تتجاوز الحدود الظاهرة إلىٰ عدوان أبعد وغزو عميق في ساحة العالم الإسلامي . انكشفت المؤامرة وانكشف امتدادها بين غفلة في الماضي مهّدت لهوان في واقعنا اليوم .

٨ ـ مع هذه اللحظات التاريخية الحرجة :

في هذه اللحظات الخطيرة من تاريخ القضية والمرحلة الجديدة المذهلة ، نحتاج إلىٰ نظرة واعية إيمانيّة لواقعنا الذي

نمرّ بـه ، ونحتـاج إلىٰ زاد عظيم من الإيمـان والتقـوى ، وزاد عظيم من العلم بمنهـاج الله ، حتىٰ نردّ واقعنـا إليـه ونفهمـه من خلاله .

في هـذه اللحظـات التـاريخيـة تمرّ قضيـة فلسطين بمرحلـة خطيرة جـديـدة ، ويمرّ العـالم كلـه كـذلـك بمرحلـة جـديـدة خطيرة . لقد توقّفَت الحرب الباردة بين العملاقين الكبيرين ، الولايـات المتحـدة الأمريكيـة والإتحـاد السوفيـاتي ، وانهـارت الكتلة الشرقية وإنهـارت أحلافهـا ، وخضع الإتحـاد السوفيـاتي للضغط الأمريكي من خلال مساومـات سريـة ، ووقع الإتحـاد السوفياتي في خضم مشكلات اقتصادية تهدّد كيانه ، ومشكلات اجتماعية ، ومشكلات سياسية ، وتعرّض الإتحـاد السوفيـاتي [1] نفسـه إلىٰ التمزّق والقـلاقـل ، وقـامت ولايـات كثيرة تطـالب بـالإستقـلال عن مـوسكـو ، وكانت أمريكا والغرب معهـا ، يغذون هذا الإنهيار والتمزّق ليكون عنصرًا من عنـاصر الضغـط

---

(١) والآن تم الإعلان الرسمي عن إنهاء الإتحاد السوفياتي وقيـام « منظومـة الـدول المستقرة » وذلـك حين وقّع رؤوسـاء إحـدى عشرة جمهوريـة عقب اجتماعهم في ألماآتا عاصمة كازاخستان بروتوكولاً بذلك في ١٥ جمادي الثانية ١٤١٢ هـ الموافق ٢١ / ١٢ / ١٩٩١ م .

والمساومة . وفقدت الفكرة الشيوعية والنظرية الجدلية كثيرًا من قواها المادية ونفوذها المادي . وظهرت الديمقراطية الغربية دعوة دولية تحملها أمريكا وتدعو لها بكل وضوح ، وتدعو إلىٰ كل آفاقها اللادينية وانفلات الحرية الفردية ، مادامت لا تهدد مصالح المجرمين المتنفّذين ، ومادامت الحرية الفردية تؤمن المتعة المخدّرة ، وقدرًا من الحقوق المدنيّة المهدّئة ، وتطلق الشهوات في كل ميادينها وتطلق الشهوة الجنسية إلىٰ أبعد حدود الإطلاق لتوفر اللهو والخدر والعجز ، والمرض والهوان . وفي هذه اللحظات تتجه أوروبا إلىٰ الوحدة المتوقعة سنة ١٩٩٢ م .

في هذه اللحظات التاريخية تتقدّم الديمقراطية الغربية بكل جبروت السلاح المدمر والقوة الطاغية ، والإزدهار العلمي والفني الواسع . تتقدم الديمقراطية تقودها أمريكا علىٰ كبر ظاهر وعتوّ واستعلاء ، في ساحة شاء الله لحكمة يعلمها أن تخلو من القوى المنافسة ، حتىٰ خُيل لبعض الناس أن هذه الحضارة تفعل ما تشاء ، وأنها هي وحدها تقرر مصير الأحداث ومجرياتها في الأرض .

أما نحن فنرى أن في هذه اللحظات آيات بيّنات علىٰ عظمة الخالق الذي لا إله إلا هو ، وأن هذه اللحظات هي لحظات تمحيص وابتلاء حتىٰ يميز الله الخبيث من الطيب ، والصادق من المنافق ، والمؤمن من الكافر ، وحتىٰ تقوم الحجة علىٰ كل إنسان .

في هذه اللحظات يظهر العالم الإسلامي بضعفه وتمزّقه وهوانه ، واختلال التصور واضطراب الميزان وغلبة الهوى ، حتىٰ اشتدَّ الابتلاء واشتدَّ التمحيص كثيرًا حتىٰ ظنّ بعض الناس بالله الظنونا !

ونحن نقول : الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! لا إله إلا الله وحده ، له الأمر كله وله الملك كله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والله يقضي بالحق والذين من دونه لا يقضون بشيء .

في اللحظات التاريخية الحرجة الخطيرة ، يقف المسلمون بكل ضعفهم وتمزّقهم يواجهون أعظم الأحداث في التاريخ الإسلامي كله ، ويواجهون أخطر تحدٍّ وأعظم مصاب ، تتناوبهم النكبات في بلد إثر بلد ودار بعد دار حتىٰ عم البلاء .

في هذه اللحظات التاريخية نعلن بكل يقين واطمئنان أنه لا إلـه إلا الله ، وأن وعـد الله حـق ، وأن النصر قريب ، وأن الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ كل شيءٍ قدير :

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقـول لـه كن فيكـون ﴾ (يس : ٨٢) .

فوعد الله حق ونصره حق ، لاريب في ذلـك . ولكن الله عادل لا يظلم أحدًا ولا يظلم شيئًا ، وما نعانيه هو بما كسبت أيدينا نحن المسلمين . فإذا تـأخر النصر فلننظر في أنفسنـا . في ذاتنا ، في قلوبنا ، فهناك تكون الجولة الأولىٰ والميـدان الممتـدُّ والمعركة الحاسمة . فإذا حققنا فيها النصر علىٰ أنفسنا ، واستقام أمرنا علىٰ طاعة الله ونصرة دينه والوفاء بالعهد وأداء الأمانـة ، إذا نزعنا الدنيـا من قلوبنـا والشهوات من صـدورنـا ، فهنـاك يتنزّل النصر من عنـد الله ، وهنـاك تلتقي القلوب وتتشـابك العزائم .

إن الزمن يطول أو يقصر لننال النصر علىٰ قـدر مـا نبـذل نحن من جهد وصدق ، ووفـاء ، وأمـانـة ، حتىٰ يرى الله فينـا وهو ينظر إلىٰ قلوبنا نقاء السريرة وصفاء الولاء له ، ولاء لا

شرك معه ، وحتىٰ يرى الله سبحانه وتعالىٰ أننا لم نقف عند الشعارات نتنافسها ونتنافس فيها الدنيا وشهواتنا ، فيُهلِك بعضنا بعضًا ، ويكيد بعضنا لبعض .

أمام واقع المسلمين الذي أوجزناه ، وأمام الوضع الدولي الجديد ، أمام هذا كله نحتاج إلىٰ وقفة وتدبّر ، قبل أن يمتد البلاء إلىٰ أخطر مما نحن فيه . ومن مراجعة التاريخ كله ندرك الحقائق التالية ، لتكون أساس التفكير والنهج :

أ ـ إن قضية فلسطين ليست قضية أرض فحسب ، علىٰ أهمية الأرض وخطورة منزلتها ، ولا هي قضية شعب محدود علىٰ أهمية دور هذا الشعب ، ولا هي قضية وطنية ولا قومية . إنها قضية إيمان وتوحيد ، ودين وعبادة . إنها قضية الإسلام ، وقضية الأمة المسلمة ، وقضية كل مسلم في الأرض إن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، مهما كان جنسه ولونه ، وأينما كانت أرضه وإقامته . وكل مسلم سيحاسب يوم القيامة عن دوره وجهده ، يوم لا يغني مال ولا بنون ، ولا جاه وسلطان ، ولا يغني مولىٰ عن مولىٰ شيئًا .

ب ـ إن قضية فلسطين تمثل الضربة المسدّدة إلىٰ قلب العالم الإسلاميّ ، لتهدد العالم الإسلامي كله بلدًا بلدًا وشعبًا شعبًا ولتهدد هذه الضربة إيمان الأمة ودينها ، وثرواتها واقتصادها ، وأمنها وأعراضها .

ج ـ في هذه اللحظات الحرجة الخطيرة يُدَوّي في آذاننا أصداء وأقوال الغزاة المجرمين كما ذكرناها سابقًا : « فستنهار القاهرة وتنهار بعدها مكة نهائيًا ... » ، وآخر يقول : « ... إن هذه المعركة ستسهل استعادة القدس ... » وقائل يقول : « ... ستخمد نار الطائفة المحمدية إلىٰ الأبد ... » ، ويقول القائد البريطاني « اللبني » : « الآن انتهت الحروب الصليبية ... » ، ويقول غلادستون : « لا نستطيع أن نحكم الشرق مادام القرآن يحكم فيه ... » . تدوّي هذه الأقوال في مسامعنا اليوم ونحن نرى نفاذها في واقعنا اليوم علىٰ مرارة الهوان والهزائم .

د ـ يكشف واقعنا اليوم أن كل قطر إسلامي يجابه مشكلاته منفردًا ، ويحسب أنه يستطيع أن يحقق نصرًا . فإذا

الواقع يكشف هزائم هنا وهنـاك ، هزائم لكل قطر أمـام عـدو متكاتف يتقدّم صفًّا واحدًا في عدوانه وهجمته الشرسة .

هـ ـ يبحث النـــاس أو بعضهم عن « الحلـول » و « التسويات » من خلال الموائـد الـدوليـة وأكف الاستجـداء . والسياسة الدولية لا ترحم الضعفاء المتخاذلين ولا المستكينين . إن الحلول يجب أن تخرج منا ، من أنفسنا ، من إيماننا الصادق بالله ، ومن منهـاج الله قرآنًـا وسنـة ، ومن الأمـة المسلمـة التي تحمل رسالة الله إلىٰ الناس ، وتُوفي بأماناتها وعهدها مع الله .

و ـ لقـد مرّت قضيـة فلسطين في جميـع مراحلهـا دون أن يكون لنـا نهج محـدد واضـح مفصـل ولا تصـور إيمـاني ثـابت للقضية ، ولا أهداف واضحة ثابتة لا يتنازل الناس عنها ، ولا تنفصل عن النهـج ولا تصطـدم مـع التصـور . وكان لـلأعـداء مخطـط مفصـل ، وتصـور عـدواني ظـالم ثـابت ، وأهـداف لا يتنـازلون عنهـا . إن عـدم وجود التصـور الإيمـاني الثـابت في قلب الطفل والفتىٰ ، والمرأة والرجل ، والكهـل والشيـخ ، كان سببًـا في عـدم وجـود النهـج المفصـل وعـدم وجـود الأهــداف

الثابتة ، مما سهل التنازل منا وسهل علىٰ الأعداء تصعيد أطماعهم وترويض تنازلاتنا . ولذلك نقدم هنا التصور الإيماني كما نفهمه من كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ لنعيه وليعيه الأطفال والنساء والشيوخ والأجيال الممتدة كلها .

ز - يريد بعض الناس اليوم نقاطًا محددة تؤدي إلىٰ استعادة فلسطين خلال فترة وجيزة . يريدون نقاطًا محددة وحلولاً سريعة ونصرًا قريبًا ، ويريدون في الوقت نفسه أن يظلوا في سهوة وغفوة ، وشقاق ونفاق ، وجدل ومراء علىٰ أرائك الراحة ، ويريدون أن يعلقوا آمالهم وأحلامهم علىٰ أوثان وأصنام يرجون منها النصر ، لا يرجونه من عند الله . ويريد كل امرىء أن ينهض الناس وكأنه هو غير معني بالنهوض ، ويكثر اللوم والنقد هنا وهناك وهو لاهث وراء مصالحه الدنيوية وشهواته المادية وأوثانه وأصنامه ! يريد بعض الناس أن يظل أشبه بالقطيع الذي يساق ، لا يتحرك فيه إيمان صادق ولا علم صادق ، لا يفيق قلب ولا ينشط عقل ولا يدفعه نهج واع مدروس . يريد بعض الناس أن

يفرغ جهله أو نفاقه أو أهواءه في زخارف وزينة يضلل بها النـاس.

وكلما رُفع شعار زينته الزخارف هرع الناس إليـه والتفوا حولـه يرجـون منـه النصر على غير هـدى أو وعي ، وعلى غير نهج أو خطـة . وتمضي السنون حتى يقول أهل الشعـار لا حل لدينا ولا خُطَّة . يقولونها بعد فوات الفرصة وضيـاع الجهود . أو يقول قائل للنائمين هل عنـدكم خير ممـا نعْمل ؟! والنـائم لا شيء عنـده إلا الأمـــانيّ والأحـلام ! ثم يصحــو على زلــزال وبركان ، ومصائب وعدوان ، وفتنة أدارها الشيطـان ! وتمضي الأحداث بين ضلالة عامل نشيط وغفوة جـاهل غرتـه الأهواء والأحلام . ويطلع صاحب الضلالة ، وصـاحب الجهل والغفوة وصـاحب الهوى ليقولوا : من أين نبـدأ الإصلاح ؟ ولو صـدق هؤلاء الله ورسوله لبدأوا بأنفسهم ليتوبوا بين يـدي الله العزيز الجبار ، وليوقفوا ضلالتهم وليرفعوا جهلهم وغفوتهم .

ح ـ فما السبيل إذن ؟! وأين المخرج :

« أسباب النصر » :

إن النصر من عنـد الله وحـده ، ينزلـه على من يشـاء من

عبـاده ، وقـد وعـد الله المؤمنين بنصره إن ينصروا الله ، وحين تتوافر فيهم الخصـائص الإيمـانيـة ، وحين يوفون هم بعهدهم مـع الله ، وحين ينظر الله إلىٰ قلوبهم فيرىٰ فيها الصدق والإيمـان ، والوعي والعلم ، وحين يرى من العـزائم جهـدًا ، ومن المؤمنين صفًّا مرصوصًا . وبغير ذلك لا يتنزّل نصر من الله . وكل جهد يذهب هباءً منثورًا .

من ظنّ أنـه يستطيـع هـو أن يقرّر النصر معتمـدًا علىٰ مـا يحسبه ذكاء ومهارة ، فقد خاب وضلَّ وأضلّ . فـالله ينصر من يشاء . وقد بيّن الله لنـا في كتـابـه العزيز صورتين من نتـائج الصراع وما يُنزّله علىٰ عباده من نصر :

١ ـ الصورة الأولىٰ حين يدور الصراع بين ظـالمين . فينزّل الله نصره علىٰ من يشاء من الفئـات الظـالمـة المتصـارعـة ليبلو بعضها ببعض علىٰ حكمة لله غالبة :

﴿ وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضًا بمـا كانوا يكسبون ﴾ (الأنعام : ١٢٩) .

فلو انتصرت فئة ظالمة فلن يكون النصر خيرًا لها عنـد الله

أبدًا . ولكن الله يُمضي سننه في الحياة الدنيا علىٰ حكمة غالبة :

﴿ ... والله غالب علىٰ أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (يوسف : ٢١) .

٢ ـ والصورة الثانية هي نصر المؤمنين في نزالهم مع غير المؤمنين . فقد وعد الله المؤمنين بالنصر وعدًا حقًّا لا ريب فيه :

﴿ ... ومن أوفىٰ بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (التوبة : ١١١) .

﴿ إن الله لينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (غافر : ١٥) .

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم

الفاسقون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾ (النور : ٥٥ ، ٥٦) .

والمؤمنون يطلبون النصر من عند الله علىٰ إيمان وعلم وإعداد وجهاد وسعي ودعاء :

﴿ ... أنت مولانا فانصرنا علىٰ القوم الكافرين ﴾ (البقرة : ٢٨٦) .

وكذلك : ﴿ ... وثبت أقدامنا وانصرنا علىٰ القوم الكافرين ﴾ (آل عمران : ١٤٧) .

والأنبياء يسألون النصر من عند الله : ﴿ قال ربّ انصرني بما كذبون ﴾ (المؤمنون : ٢٦ ، ٣٩) .

ولكن الله اشترط علىٰ عباده المؤمنين شروطًا إذا أوفوا بها أوفىٰ الله لهم بعهده :

﴿ ... وأوفوا بعهدي أُوف بعهدكم وإياي فارهبون ﴾ (البقرة : ٤٠) .

وهذا هو الشرط العام الأول الأساسي ، وهو الوفاء الكامل

بعهد الله وشروطه . وعهد الله مفصّل في كتـابـه العزيز وسنـة نبيـه ﷺ لا يضل عنـه إلا هـالـك ، ولا حجـة لأحـد بعـدم الـوفـاء بـه ، ويفصّـل كتـاب الله الشروط كلها ويـؤكـد على بعضهـا . ونحن هنـا نـورد قبسـات فحسب . والشرطـان الأساسيان لهذا العهد مع الله يجملها القرآن الكريم بنقطتين كما ورد في الآية السابق ذكرها من سورة النور ، وهما : ﴿ الذين آمنوا ﴾ ، وكذلك : ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ . فهؤلاء وعدهم الله الاستخلاف والتمكين والنصر . وفصّـل منهـاج الله قرآنـاً وسنة الإيمـان والعمل الصـالح تفصيلاً لا يترك عـذرًا لأحـد . والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . ولـذلـك كان من شروط العمل الصـالـح أن يكـون مصـدقًـا لـلإيمـان مسـتوفيًـا شروطه . وكذلك بين الله شرطًا عامًا في كتـابـه العزيز . وهو أن ينصر المؤمنون ربهم الله :

﴿ يـٰأيهـا الـذين آمنـوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم . والذين كفروا فتعسًا لهم وأضلّ أعمالهم ﴾ (محمد : ٧ ، ٨) .

﴿ ... ولينصُرَنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ (الحج : ٤٠) .

﴿ ... وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين ﴾ (الروم : ٤٧) .

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ (آل عمران : ١٢٦) .

﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (الأنفال : ١٠) .

وسيبتلي الله المؤمنين ويُمَحصُهم ليميز الخبيث من الطيّب ، ولتقوم الحجة علىٰ كل إنسان ، ولتكشف حقيقته بعد أن يكون قد أخفاها في أحناء صدره .

﴿ ... ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ (محمد : ٤) .

﴿ ... وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ (الحديد : ٢٥) .

﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحّص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴾ (آل عمران : ١٥٤) .

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلىٰ الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (آل عمران : ١٦٠) .

﴿ وليمحّص الذين آمنوا ويمحق الله الكافرين ﴾ (آل عمران : ١٤١) .

وإن من أهم أسباب الهزيمة هو نقض العهد مع الله واضطراب الولاء ، واضطراب التوحيد ، والركون إلىٰ الظالمين :

﴿ ولا تركنوا إلىٰ الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثمّ لا تنصرون ﴾ (هود : ١١٣) .

وربّما يقول قائل اليوم إن الجهاد فرض عين علىٰ أهل البلد المحدّد الواحد ، وفرض كفاية علىٰ أهل البلاد المجاورة ، ليسوّغوا بذلك قعود المسلمين عن واجبهم في حماية ديارهم

وأعراضهم وأمتهم . وفي هذا القول وفي فهمه وإيحاءاته بين الناس أخطاء لابد من بيانها لدفع أخطارها . فهذا القول قد يصحّ في أمة الإسلام وهي أمة واحدة متماسكة ، تدخل كلها ساحة الجهاد بالقدر الذي يكفي المعركة لتعذر الأمة نفسها بين يدي الله ، ولتوزّع الأمة المسئوليات علىٰ ضوء الواقع والخُطة الموضوعة للمعركة والجهاد . فهؤلاء يباشرون القتال في الميدان وهؤلاء يديرون المصانع وآخرون يدفعون التعليم ، وآخرون يحمون الزراعة والإنتاج وهكذا . وتظل الجهود كلها تصبّ في المعركة ، يتحمل كل مسلم مسئوليته ، حتىٰ تُحقّق الأمة النصر بإذن الله . فحسب القول السابق يكون الجهاد فرضًا علىٰ الأمة المسلمة كلها . ولكن المسئوليات تتوزع حسب الخطة المعدة المدروسة ، الخُطة التي تعدّها الأمة الواحدة .

وهذا القول لا يُبنىٰ علىٰ أساس أن البلاد والأقطار ممزّقة ، وأن الأمة رضيت بالحدود التي فرضها عدُّوها عليها . أيُعقل أن يرضىٰ الإسلام أن تكون لبنان بلدًا يحميه أهله وحدهم ، وفلسطين بلدًا يتحمل أهله وحدهم مسئولية حمايته ، وسوريا الحالية والأردن بحدودها القائمة كذلك ؟! وهل يرضىٰ الإسلام

أن يقوم فقهه علىٰ ما يفرضه علينا أعداء الإسلام ؟! من وضع هذه الحدود ؟! وهل هي نابعة من فقه إسلامي ، من فقه الإيمان والتوحيد ؟! إن الله سبحانه وتعالىٰ جعل المسلمين أمة واحدة متراصة من دون الناس ، وأكد الرسول ﷺ هذه الحقيقة الربّانيّة وبلّغها للناس وأدّى الأمانة ، وجاء التاريخ الإسلامي كله ليثّبت هذا التصوّر القرآني الإيماني مدة أربعة عشر قرنًا ، قاومت الأمة فيها جميع مكائد الأعداء لتمزيقها !.

ومن ناحية أُخرى ، فيمكن أن ينهض القول السابق بانفراد كل قطر بالمسئولية حين يثبت للمسلمين أن أهل القطر قادرون علىٰ دخول المعركة وحدهم ، وأن أسباب النصر المادية متوافرة لديهم . أما وقد كشف الواقع بكل جلاء أن أهل القطر الواحد عاجزون عن دفع الهجمة الدولية المتراصة عليهم ، وأن تركهم في الميدان وحدهم يعرّض كل ديار المسلمين للخطر الداهم ، وأن الأعداء احتلوا جزءًا من دار الإسلام ، جزءًا مقدّسًا ، وأن أهل هذا الجزء أو ذاك عجزوا عن دفع الأعداء ، هنا ، في هذه الحالة ، للإسلام فقه واحد لا ثاني له ، ولا عذر لأحد عند الله بمخالفته ، ذلك أن الجهاد بجميع

أبوابه فرض عين علىٰ كل مسلم في الأرض ، وإن لقاء المؤمنين في أمة واحدة فرض عين كذلك .

إن من أعظم الآثام عند الله أن يسقط شبر واحد من أرض الإسلام بيد أعداء الله ، وأن تستباح حرماتهم وأعراضهم وثرواتهم ، فكيف إذا كانت فلسطين هي التي سقطت ، وإذا كانت ديار المسلمين أصبحت كلها مهددة بخطر واضح كالنهار ؟!

إن الله سبحانه وتعالىٰ خاطب الأمة كلها في كتابه العزيز ، خاطب المؤمنين كلهم علىٰ مدار التاريخ أفرادًا وأمة ، بقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يٰأيها الذين آمنوا ... ﴾ ، وخاطبهم ربهم وأمرهم بالجهاد وكتبه عليهم وجعله فرضًا علىٰ الأمة كلها :

﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم علىٰ تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (الصف : ١٠ ، ١١) .

فالجهاد حق فرضه الله علىٰ الأمة كلها وكتبه عليها . ولكن الجهاد الذي فرضه الله نهج وخطة وإعداد وبناء ، وليس عملاً ارتجاليًا تندفع إليه فئة سرعان ما تنهزم في جولة أو جولات ، ثمّ يمتدّ العدو .

إن النهج والخطة والإعداد والبناء ، يقوم ذلك كله علىٰ أساس من منهاج الله ، وعلىٰ أساس فهم الواقع الذي نعيشه حين نردّه إلىٰ منهاج الله ردًا صادقًا أمينًا ، عن إيمان وعلم ووعي .

ومن أجل ذلك لابدّ أن نبحث بصدق عن أسباب هزيمتنا ، وعوامل فرقتنا وشتاتنا . لابد أن نبحث عن أسباب هواننا اليوم وذلتنا بحثًا يقوده منهاج الله إيمانًا وتصديقًا ويقينًا ، دون أن تعبث بنا الأهواء والشهوات والمصالح الفردية الدنيوية ، الأهواء والشهوات والمصالح التي تخفيها زخارف الشعارات وزينة الرايات .

وإن من أهم أسباب الخذلان ، قيام العصبيات الجاهلية

والحميّة العائلية والإقليمية والقومية حتىٰ تطغىٰ فتكون أعلىٰ من حميّة الإيمان وروابط التقوى ولُحمة الإسلام .

إذا لابد من أن نغيّر ما بأنفسنا حتىٰ يصدق ولاؤنا لله ، وعهدُنا مع الله ، وحبنا الأكبر لله ولرسوله ، علىٰ يقين تثبته ممارسة صادقة في الواقع ، وعلىٰ علم وافٍ بكتاب الله وسنّة رسوله ، وعلىٰ علم بالواقع الذي يجري حولنا حتىٰ لا يخدعنا عدو ولا يجرّنا إلىٰ فتنة ولا يرمينا في هوّة الضلال والشرك .

إن الداء في داخلنا ، في أنفسنا ، إن الخلل في واقعنا ، في تصوّرنا الإيماني وفي علمنا وفهمنا ، وفي سلوكنا وممارستنا .

إن الله سبحانه وتعالىٰ أكد لنا في كتابه الكريم أنه لا يغيّر ما بقوم حتىٰ ينهضوا هم أولاً ويغيّروا ما بأنفسهم . وهذا يعني أنه لابد من أن تتوافر الخصائص الإيمانية التي أمر الله بها حتىٰ ينجز الله وعده ويحقّق نصره . وقد أكد الله سبحانه وتعالىٰ كذلك في كتابه الكريم أنه لا يبدّل نعمة أنعمها علىٰ قوم حتىٰ يبدّلوا ما بأنفسهم :

﴿ ... إن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم .... ﴾ (الرعد : ١١) .

وكذلك : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها علىٰ قوم حتىٰ يغَروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ (الأنفال : ٥٣) .

إن هذا هو الحق من عند الله . حقٌ لا باطل معه أبدًا . فمن هنا ينطلق كل حلٍّ لقضية فلسطين ، ومن هنا تنطلق الدرب الممدودة إلىٰ فلسطين ، ومن هنا يبدأ النهج والتخطيط وتتحدد الأهداف والغايات . إن فلسطين وإن الطريق إليها علىٰ درب الجنّة ! .

إن المعركة الحقيقية تبدأ إذن في أنفسنا نحن المسلمين والمنتسبين إلىٰ الإسلام . إنها تبدأ في داخلنا ، في قلوبنا ، في نيّاتنا ، حتىٰ يرى الله سبحانه وتعالىٰ منا الصدق في الإيمان والتوحيد ، والصدق في الولاء الخالص له ، والعبودية المطلقة له ، لا لسواه ، وليرى العلم بكتابة وسنة نبيه علمًا يعمل ويرسم وينهج .

لابد أن تذوب كل العصبيات الجاهلية والشهوات المنحرفة الطاغية ، من نفوسنا ، من واقعنا ومناهجنا ، حتىٰ يَستقرَّ هوانًا علىٰ منهاج الله وتبعًا لما جاء به محمد ﷺ ، وحتىٰ يكون الله ورسوله أحبَّ إلينا مما سواهما شعارًا وعاطفة وتصديقًا وممارسة . وحتىٰ نتوبَ إلىٰ الله ونؤوب وننيب !

فمن الناس من يقول إن ولاءه لله شعارًا يرفعه ، وفي حقيقة الممارسة والتطبيق يكون الولاء للأهواء والشهوات والمصالح المادية ، أو للعائلة والإقليم والقومية ، في حمية وعصبية جاهلية ، قد يعلوها ستار رقيق من شعار الإسلام ، أو يكون الولاء المطلق للسلطان أو للعالم ، يجعلهم الناس أندادًا لله ﴿ والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله ﴾[1] .

قبل أن يصدق الإيمان في القلوب ، وقبل أن تنتفي جميع أنواع الشرك الخفيّ والشرك الظاهر ، قبل أن يصدق الإيمان علىٰ ما يحبه الله ورسوله فلن يفلح نهج ولا عمل ، ولن يصدق هدف أبدًا ، ولن يتحقق نصر .

---

(١) سورة البقرة : ١٦٥ .

إنها معركة الإيمان والتوحيد في نفوسنا وواقعنا ونهجنا وأهدافنا وقوانيننا . فمن كان يرى دربًا أقصر من ذلك فليذهب إليه فذلك ذنبه وجريرته ، حين يخالف ما يرسم الله ورسوله . ولبناء الإيمان في النفوس ولتغيير ما بنفوسنا فلابد من جهد خاص ، ونهج واع ، وخطة أمينة . إن الهداية من عند الله يهدي من يشاء . ولكننا مكلفون أن نبذل الجهد الصادق الأمين ، وأن يستوعب الجهد طاقتنا ووسعنا ، وأن ندعو ونربي ، وننصح ونوجه ، ونتعهد ونشرف ونراقب وندرب ونعلم ، ويفعل الله ما يشاء ، له الأمر كله .

ومن أجل هذه المعركة نفسها يصبح منهاج الله ، قرآنًا وسنة ولغة عربية ، هو أساس العلم ومصدر التصور ، ليقدم الغذاء للإيمان والتوحيد ، وليقوّم النظرة والرأي ، والخطوة والنهج ، ولتنبع منه الأهداف الثابتة كلها . ويصبح التأثير متبادلاً بين الإيمان والعلم بمنهاج الله ، كل واحد يغذّي الآخر ويقويه ، حتى يكون الأخذ من منهاج الله أخذًا متكاملاً منهجيًا يأخذ كل مسلم قدر وسعه وطاقته التي يحاسبه الله عليها .

ومن أجل الإيمان وتدبُّر منهاج الله نتدبّر الواقع الذي نعمل فيه . نتدبره من خلال منهاج الله لنراه الرؤية الصادقة الأمينة ، فلا نخدع إلىٰ ضلالة ولا نستدرج إلىٰ فتنة ، ونرى آيات الله بينات في الواقع لتزيد من إيماننا ويقيننا ، ولتزيد من علمنا ووعينا ، وليساعدنا هذا كله علىٰ رسم خطة وإقامة نهج .

وتمضي مدرسة الإسلام تعِدُّ جنودها علىٰ هذه الأسس كلها تدريبًا وإعدادًا وبناء ، وتمدّ خطتها ونهجها لتظل نامية متطورة تستوعب متطلبات الواقع المتجدد عبادة لله وطاعة ، وتدريبًا علىٰ ممارسة منهاج الله في الواقع ، في كل ميادينه الممتدة في الحياة .

هذا هو المنهج الذي ندعو إليه في خطوطه العامة . فلا مكان هنا للتفصيل . ولكن كل نقطة من هذه النقاط الأربع : الإيمان والتوحيد ، منهاج الله ، الواقع ، التدريب علىٰ ممارسة منهاج الله في الواقع ، كل قضية من هذه القضايا تحتاج إلىٰ دراسة وتفصيل ، ونهج محدد واضح ، وجهود تتكاتف لتحقيقها في واقع الأمة . ونعيد إيجازها بما يلي :

أولاً : الإيمان والتوحيد :

الدعوة إليهما من خلال منهاج الله ، قرآنا وسنّة ولغة عربية ، وتنقيتهما من شوائب الهوى ، وتثبيت التصوّر القرآني لهما ، وتنميته في قلوب من يهديهم الله ، ولتكون الهدف الثابت الأول في حياة المؤمن ومسيرة الدعوة الإسلامية .

ثانيًا : المنهاج الرباني :

دراسة منهاج الله ـ قرآنًا وسنة ولغة عربية ـ دراسة تقوم على الإيمان والتوحيد ، دراسة تدبّر وتصديق تمتدُّ صحبة عمر وحياة ، يأخذ بها المؤمنون أخذًا متكاملاً ، لا يأخذون جزءًا ويدعون جزءًا ، يأخذ كلٌّ قدر وسعة وطاقته ، وقدر مسئوليته وأمانته ، أخذ عزيمة وقوّة ، ليولد هذا كله الحافز في قلب المؤمن للنهوض والسعي ، وفي عزيمته القوة والدفع .

ثالثًا: الواقع :

دراسة الواقع دراسة منهجيّة تقوم على أساس الإيمان والتوحيد ، ومن خلال منهاج الله ، لتوفّر هذه الدراسة قدرًا

من الوعي واليقظة ، ولتوفّر القدرة علىٰ حسن تدبّر آيات الله في الحياة وسننه ، ولتعين المؤمن علىٰ تجنب مزالق الفتنة ، والقصور والعجز ، ولتعين هذه الدراسة المؤمن علىٰ حسن ممارسة منهاج الله في الواقع البشري .

رابعًا : الممارسة الإيمانية والتدريب عليها :

التدريب المنهجي علىٰ الممارسة الإيمانيّة لمنهاج الله في الواقع البشريّ ، حتىٰ يقوم العمل الصالح في حياة الإنسان وواقعه علىٰ الأرض ، خاضعًا لميزان منهاج الله ، وليقوي الإنسان علىٰ الوفاء بالأمانة التي حملها ، والعهد الذي التزم به مع الله ، والخلافة التي أُنيطت به ، والعمارة التي أُمر بها ومن خلال ابتلاء كتبه الله علىٰ بني آدم .

إنها مسئولية كل مسلم أن يعود لنفسه فيحاسبها . فهذا أمر الله إليه أن ينظر ما قدّم . وإنها مسئولية كلّ حركة إسلامية أن تقف مع نفسها وقفة محاسبة ومراجعة ، وقفة صدق وإيمان ، وقفة مراجعة الماضي ودراسة الأخطاء ، وقفة نصح

صادق وإيمان ، وقفة نقد ذاتي ، لتضع نهجًا وترسم دربًا وتحدد أهدافًا وتعالج خطأ .

إن هذه الوقفة والمراجعة والمحاسبة ، والنقد الذاتي والنصح والتقويم ، أمر أساسي في واقع المسلمين اليوم ، حتىٰ تُمَهَّدَ الطريقُ إلىٰ لقاء المؤمنين الصادقين ، الذين يرجون الله والدار الآخرة ، وليكون اللقاء علىٰ الحق الذي يُرضي الله لا علىٰ ما تتفق عليه الأهواء .

وإن هذا اللقاء ضروري من أجل تحقيق الهدف الإيماني العظيم ، ألا وهو بناء الأمة المسلمة الواحدة في الأرض ، تعبد حق العبادة ربًا واحدًا هو الله لا إله إلا هو ، وتخضع لمنهاج الله حكمًا ودولة وسياسة واقتصادًا ، وسائر ميادين الحياة الفردية والعامة . أمة مسلمة واحدة تتوافر فيها الخصائص الإيمانية التي أمر الله بها ، والتي يُفصّلها كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ ، خصائص أعمق من المظاهر ، تبني الفكر والتصوّر ، والعاطفة والشعور ، والنهج والدرب ، والممارسة والعمل . وإن الشعارات والمظاهر ، علىٰ أهميتها أحيانًا ، لا

تكفي وحدها لتحقيق طاعة صادقة لله ، حتىٰ ينجز الله وعده وينصر عباده المؤمنين .

إن هذه الأمة المسلمة الواحدة هي التي تنزل الميدان لمجابهة قضايا الأمة كلها ومشكلاتها ، تجابهها صفًّا واحدًا كالبنيان المرصوص . فلا تنفصل قضية عن قضية ، وترتبط قضية فلسطين عندئذ بسائر قضايا المسلمين ، لتمثل كلها معركة واحدة في ميدان واحد في أُمة واحدة .

لن يتحقّق النصر إذا كان في المسلمين ثغرات التمزّق والفتنة . ولنستمع إلىٰ حديث رسول الله ﷺ وهو يقول :

عن ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها . وإن أُمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها ، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأصفر . وإني سألت ربي لأُمتي أن لا يهلكها بسَنة عامّة ، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . وإن ربي قال لي : إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يرد . وإني أعطيت لأمتك أن لا أهلكهم بسَنةٍ عامة ، وأن لا أسلط عليهم

عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، أو من بين أقطارها ، حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا » أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح . كتاب الفتن (٣٤) باب (١٤) حديث (٢١٧٥) .

نعم ! حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا ! هذا هو التمزّق والتفرّق وهذه هي الثغرة التي يأذن الله لعدوّ أن ينفذ منها إلىٰ أُمة الإسلام ، أُمة محمد ﷺ !

فَسُدُّوا هذه الثغرة أيها المسلمون !

إن الله سبحانه وتعالىٰ هيّأ للأُمة المسلمة الواحدة جميع أسباب النصر المادية ، وبقي السبب الرئيسي لنزول النصر علىٰ المسلمين ، السبب الذي يجمع كل الأسباب المادية والإيمانيّة علىٰ سنن لله ثابتة ، السبب الذي تعمل به القوى الماديّة في حياة الأمة ، وتتعطّل بدونه . هذا هو السبب الرئيسي هو الصدق مع الله ، الصدق بالإيمان ، والصدق بالعلم والصدق بالبذل إن هذا هو السبب الرئيسي للنصر في ميزان الإيمان جعله الله من

مسئوليـة الإنسـان ، من مسئـوليتـه التي يحـاسب عليهـا يـوم الحساب ، ويجني بركتها في الدنيا والآخرة .

أما الأسبـاب المـاديـة في واقع الأُمـة فقـد منّ الله بهـا علىٰ المسلمين ، وهيّأ لهم بركتهـا وخيرهـا إذا نهضـوا لهـا صـادقين . ويمكن أن نوجزها بنقاط محددة كما يلي :

١ ـ الموقع الوسط المتميّز كما فصلناه في الصفحات السابقـة ، لتكـون أمـة الإسـلام بـه أمـة وسطًـا ، شهـداء علىٰ النـاس ، يتصلـون بـالشعـوب كلهـا من هـذا المـوقـع اتصـال دعـوة لله ورسوله ، وبلاغ لدينه ورسالته .

٢ ـ الدين الحق والمحجّة البيضـاء ليلهـا كنهـارهـا لا يزيغ عنها إلا هـالـك : دين تعهّـد الله بحفظـه ، ويسّره الله لعبـاده وبلّغه للناس أكرمُ خلقه محمدّ ﷺ خاتم النبيين والمرسلين .

٣ ـ الثروة الغنيّـة في بـاطن الأرض ، وفي بركات السماء . حتىٰ كان العـالم الإسـلامي يمثـل أغنىٰ بقعـة في الأرض بخيراتهـا المتنوعة الممتدّة ، وثرواتهـا الظـاهرة والبـاطنـة : زرع وثمـار ، ومعادن شتّىٰ ، وطبيعة متنوعة تسهّل الحركة والانتقال .

٤ ـ الطاقة البشرية حتىٰ زاد عدد المنتسبين للإسلام عن مليار من الناس .

فأيّ قوة مادية يحتاج المسلمون بعد ذلك ؟! وفّر الله برحمته وفضله كلّ ذلك وحتىٰ تظل دعوته إذا صدق جنودها قوية غنيّة ممتدة في الأرض ، ولتظلّ أمتها عزيزة وسطًا شهداء علىٰ الناس .

إن الوهن إذن في أنفسنا وفي إيماننا ، في ذاتنا ، فلنحاسب أنفسنا ، ولننهض إلىٰ أمانتنا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

اللهم لك أسلمنا وإليك أنبنا

وعليك توكلنا

خاتمة وموجز

وفي ختام هذه الكلمة نقدّم موجزًا للتذكير والتأكيد :

١ ـ ضرورة توحيد التصوُّر لقضية فلسطين على أساس من الكتاب والسنة . فإن التصورات اليوم لهذه القضية مختلفة متناقضة مضطربة ، أدت إلى تبعثر الجهود . ولقد أدى تسلل المبادىء المختلفة إلى واقعنا إلى اضطراب هذا التصور واختلافه ، كما أدى إلى ذلك جهل الملايين من المسلمين بحقيقة دينهم وواقعهم وتفلّت الكثيرين من جوهر الإيمان والتوحيد ، وغلبة الشعارات والزخارف التي لا تجد لها رصيدًا في الواقع .

٢ ـ لابد أن يبرز توحيد التصوّر في الكلمة والأدب والإعلام والموقف ، وليكون غذاءً للأطفال والشباب والرجال والنساء ، ولتميدّ مع التاريخ كله ، وليكون شاهدًا لنا لا علينا يوم القيامة بين يدي العزيز الجبار .

٣ ـ إن التصوّر الإيماني لقضية فلسطين ، التصور الذي نطرحه على أساس من الكتاب والسنّة يؤكد أن فلسطين هي ملك الإسلام والمسلمين ، منذ أقدم عصور التاريخ ، أمانة في أعناقهم حتى تقوم الساعة .

٤ ـ لقد كانت الأرض كلها دار إسلام ، وكان الناس أمةً واحدة يدينون كلهم بدين الإسلام ، حتى اختلفوا وافترقوا إلى مؤمنين وكافرين . وبعث الله الأنبياء والمرسلين منذرين ومبشرين ، وكان أوّلَ الأنبياء والمرسلين نوح عليه السلام .

٥ ـ وهاجر إبراهيم ولوط عليهما السلام إلى فلسطين يحملان رسالة الإسلام ودين الله إلى فلسطين ، ويدعوان الناس إليه ، ويعيدان فلسطينِ إلى الإسلام ، والإسلام إلى فلسطين . وعادت فلسطين إلى الإسلام وعاد الإسلام إليها وأصبحت فلسطين منذ ذلك التاريخ ، منذ فجر الدعوة الإسلامية في الأرض دارًا للإسلام والمسلمين وحقًّا لهم وساحة للدعوة الإسلامية ، وأصبحت هي الأرض المقدسة والأرض المباركة بأمر الله وبرسالة الإسلام . وهاجر إبراهيم عليه السلام إلى مكة ، مع زوجته هاجر وولده إسماعيل ، ثم يبني إبراهيم وإسماعيل الكعبة لترتبط دار الإسلام كلها .

٦ ـ وتحرّك موسى عليه السلام إلى الأرض المقدّسة وأمر قومه بذلك ، أمر قومه المسلمين الذين آمنوا معه في مصر ،

والـذين نجّـاهم الله برحمتــه من فرعـون وملئهم أن يفتنهم عن الإسـلام ، عن دين الله الـواحـد الحـق . أمرهم مـوسى بـذلـك ليحملوا رسالة الإسلام إلى فلسطين ، وليدعوا الناس إليه . فما تحرّكوا إلى فلسطين بعصبيـة جنسيّة ولا قوميـة ، ولا عصبيـة دم . ولكنهم ضعفوا وجبنـوا عن حمـل هـذه الرسـالـة العظيمـة حتى كتب الله عليهـم أن يتيهـوا في الصحراء أربعين سنــة ، ينشأ بعدها جيل أشدُّ إيمانًا وأصدق بذلاً وأوفى عهدًا للإسلام ، يقودهم النبيّ المسلم يوشع بن نون عليه السلام ، يحملون رسالـة الإسلام فحبس الله الشمس ليوشع بن نون عليـه السـلام ليـالي سار إلى بيت المقدس . لتمتدّ أمـة الإسلام الواحـد في التـاريخ الإنسانـي لا تفرّقها عصبيات الجنس والدم .

٧ ـ ولـما انحرف النـاس عن الإسـلام في فلسطين بعث الله عيسى عليـه السلام نبيًّـا مسلمًـا ورسولاً يـدعـو إلى الإسـلام ، ولتمتدّ معه رسـالـة الإسلام وأمـة الإسلام وملحمـة الإسلام على أرض فلسطين المسلمة المقدّسة بالإسلام ، المباركة بأمر الله .

٨ ـ ولـما ازداد إنحراف البشر عن الإسلام وظهر الفسـاد في

الأرض بما كسبت أيدي الناس بعث الله محمدًا ﷺ نبيًّا ورسولاً خاتمًا للعالمين .

٩ ـ ثم أسرى به الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليؤم الأنبياء كلهم وليتأكد امتداد أُمة الإسلام الواحدة في التاريخ البشري ، وليتأكد حق هذه الأُمة في فلسطين ، وليتأكد أن فلسطين ملك للإسلام والمسلمين ، بأمر الله وبدينه وبرسالته ودعوته .

١٠ ـ ثم تنطلق كتائب الإسلام من المدينة المنوّرة تحمل دين الله ورسالته ، دين الإسلام ، إلى الناس كافة ، وتتجه الكتائب إلى أرض الشام ، إلى فلسطين ، إلى بيت المقدس ، ويدخلها أمير المؤمنين ، خليفة رسول الله ﷺ ، في العشرين من ربيع الأول سنة (١٥ هـ) الموافق لليوم الثاني من شهر أيار (مايو) سنة ٦٣٦ م . فتمتد بذلك أُمة الإسلام الواحدة ، وتعود فلسطين إلى أهلها وأصحابها ، المسلمين ، حملة رسالة الله ودينه الواحد الحق ، ولتصبح فلسطين أمانة في عنق الأُمة المسلمة .

١١ ـ ويؤكد الإسراء ، ويؤكد دخول عمر بن الخطاب بيت المقدس ارتباطَ فلسطين بالإسلام ، وحَق الأُمة المسلمة في فلسطين ، ويؤكد هذا كله العهد الذي أَخذه الله من الأنبياء والمرسلين كلهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينصروه ، ويؤكد هذا كله الشهادة التي شهدها الأنبياء كلهم بالنبوّة الخاتمة لمحمد ﷺ ، حتى أَصبحت هذه الشهادة جزءاً من شهادة التوحيد : « أَشهد أن لا إله إلا الله وأَشهد أَن محمد رسول الله » .

١٢ ـ لقد أَخذت فلسطين منزلة عظيمة في دين الله : يتوالى الأنبياء والمرسلون فيها ، وتتوالى ملاحم الإسلام . أَنبياء يهاجرون إليها ، وأَنبياء يولدون فيها ، وأَنبياء يبعثون فيها ، وعيسى عليه السلام يرفع منها ، وأَنبياء الإسلام يحكمون فيها ، ومحمد ﷺ أُسري به إليها ، وكتائب المؤمنين ممتدة مع الزمن وملاحمهم فيها تدور ولا تهدأ . ونجد من خلال ذلك نقاطًا بارزة ملية :

(أ) إرتباط فلسطين على مدى التاريخ بالدعوة الربّانية ، بدين الإسلام .

(ب) الموقع الوسط المتميز .

(جـ) الطبيعة المميزة .

(د) ذلك كله جعلها مفتاح الشرق ومفتاح العالم الإسلامي على صغر مساحتها .

(هـ) إرتباط فلسطين بدار الإسلام كلها إرتباط عقيدة وموقع وحركة واقتصاد وسياسة وأدب وفكر وملاحم وقتال .

١٣ ـ لقد أبرز الواقع التاريخي عظمة دور فلسطين وأهميتها حتى يومنا هذا ، وستبقى كذلك حتى تقوم الساعة ففيها يخوض الإسلام أعظم ملاحمه : هجرة إبراهيم ولوط عليهما السلام ، زحف موسى عليه السلام وقومه ، زحف يوشع ابن نون عليه السلام ، طالوت وصراعه مع جالوت ، وتمتد الملاحم حتى تأتي النبوة الخاتمة نبوة محمد ﷺ ، وستظل ممتدة كذلك . إنه صراع الإيمان والتوحيد مع الشرك بمختلف ألوانه . إنه صراع بين ما يسميه بعضهم « الحضارات » ليأخذ جميع أشكال الصراع : العسكري ، الفكري . الأدبي ، العلمي ،

السيـاسي ، الاقتصـادي ، المصـالـح المتشـابكـة بين الأمم والشعوب .

وتصور لنا الآيات والأحاديث امتـداد هـذه الملاحم كلهـا .، حتى لا يبقى لمسلم عـذر في تـوانٍ أو تراخٍ عن حمـايـة دار الإسلام كلها وحماية فلسطين .

١٤ ـ وامتد كيـد أعـداء الله في هـذا الصراع المستمر ، حتى أخـذ في العصر الحـديث صورة المـؤامرة الكبرى على الإسـلام وعلى العالم الإسلامي . فسقطت الأندلس ، ثم امتد الصراع إلى الهند وجنوب شرق آسيا ، وشمال أفريقيا ، وأخذ الطوق يشتد على العالم الإسلامي ، وكشف أعداء الله عن نيّاتهم وعدوانهم في كلمـاتهم وفكرهم وجيـوشهم . وكانت الحروب الصليبيـة صـورة مكشوفة لهذا التآمر والصراع .

١٥ ـ وحيثما دار الصراع فقد ظلّت أنظار الأعداء تتجه إلى فلسطين ، وخططهم تهـدف إليهـا . وكان المسلمون غـافلين عن خطورة المؤامرة ، غائبين عن حقيقة ما يدور حولهم .

١٦ ـ لقد كان من أخطر ما رسموه أن جعلوا شعـار السلام

بابًا للعدوان والظلم ، ووسيلة لتنفيذ أخطر مؤامرة تقع في تاريخ البشر ، يتعاون على تنفيذها جميع أعداء الله في الأرض .

١٧ ـ فكانت تنازلات المسلمين مستمرة متتابعة :

(أ) بروز القومية في دار الإسلام بروزًا مزّق الديار والجهود والقلوب .

(ب) بروز الأفكار المنحرفة في واقع العالم الإسلامي وتسللها إلى مختلف ميادين الحياة .

(جـ) جهل المسلمين الواسع بدينهم وواقعهم ولغتهم .

(د) ظهور الدعوة العلنية للسلام منذ وقت مبكر يتبناها الحزب الشيوعي في فلسطين ، وتدعمها القوى الغربية والشرقية .

(هـ) ظهور هذه الدعوة خارج الحزب الشيوعي ونموها:

هـ ١ـ تصريح أحمد الشقيدي سنة ١٩٥٢ وسنة ١٩٦٢ م .

هـ ٢- وفد من فلسطين ومصر يشارك في افتتاح الجامعة العبرية في القدس .

هـ ٣- بيانات متعددة تصدر في العالم الإسلامي وفي مؤتمراته تتحول فيها قضية فلسطين إلى قضية قومية عربية ، ثم إلى قضية إقليمية تنحصر في الشعب الفلسطيني .

هـ ٤- تصريح عبد الناصر لمجلة ريالتي الفرنسية سنة ١٩٦٥ .

هـ ٥- مقدرات مؤتمر باندونع .

هـ ٦- وكثير غير ذلك من التصريحات والمقررات .

١٨ ـ من هذا كله نجد أن التصوّر الإيماني لقضية فلسطين كان غائبًا عن الساحة كلها لعصور طويلة ، كان غائبًا عن واقعها وحركاتها وأدبها وفكرها ، ونشاطها وصراعها . حتى حين يرفع الشعار الإسلامي كان النشاط يظل قوميًا أو إقليميًا ، وتظل الأجهزة والكيانات كذلك قومية أو إقليمية، وتصبح المناهج والخطوات كذلك إقليمية ، وتصبح العواطف كذلك والعصبيات إقليمية ، فيضطرب الولاء ويضطرب

الإيمان والتوحيد ، وتختلط العهود وتضطرب . وتنفصل السياسة ومناهجها عن قواعد الإيمان وقد تتعارض معها .

١٩ ـ مع هذا الظلام تقع أحداث خطيرة في اللحظات التاريخية اليوم :

(أ) هجرة مئات الألوف من يهود الإتحاد السوفياتي إلى فلسطين تحت سمع الشرعية الدولية وبصرها وعدالتها المزعومة .

(ب) هجرة يهود الفلاشا من الحبشة .

(جـ) تفتت العالم الإسلامي وطغيان المصالح الإقليمية والقطرية وتناقضها ، وإنحسار قواعد الإيمان ومنهاج الله عن واقع الأُمة .

(د) وقوع أزمة الخليج وامتداد آثارها إلى العالم العربي كله والعالم الإسلامي ، وإلى العالم كله ، زلزالاً لا يعلم مدى تأثيره إلا الله .

(هـ) إنهيار الكتلة الشرقية في أُوربا وتمزُّقها ، وإنهيار الحكم الشيوعي فيها ، وإتجاهها إلى الغرب .

(و) إلتقاء الإتحاد السوفياتي والعالم الغربي وخاصة أمريكا ، وتوقف الحرب الباردة بينهما .

(ز) إنهيار الحكم الشيوعي في الإتحاد السوفياتي وبروز القوميات وإحتمال تفتت الإتحاد إلى قوميات مختلفة .

(ح) بروز الولايات المتحدة الأَمريكية تدعمها أُوربا الغربية كقوة عظمى وحيدة في الأَرض ، مما كان إمتحاناً قاسيًا وتمحيصًا شديدًا للإيمان والتوحيد ، حتى فتن الكثيرون بذلك .

٢٠ ـ في هذا الجو جاءت الدعوة إلى مؤتمر السلام ليعقد في نهاية تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٩١ م . ولكننا قد لا ندرك كلّ ما تخفيه دعوة السلام ، ذلك لأَننا اعتدنا في قضية فلسطين أن لا تكون الحلول المطروحة العلنية هي التي يقصد تنفيذها ، وإنما تكون سبب استهلاك الجهود حتى يفاجيءَ الناسَ الحلُّ المطويّ فيصعقهم .

٢١ ـ لا نعتقد أن مؤتمر السلام يستطيع أن يقدم خيرًا للمسلمين للأسباب الرئيسية التالية :

(أ) إن أطماع اليهود ممتدة معلنة واضحة ، واليهود جادون بها لا يتراجعون عنها ، وهي أطماع حرب وعدوان لا تحتمل السلم ولا السلام .

(ب) إن أطماع الغرب والشرق كذلك أطماع عدوان وحرب ، وهم جادون بها لا يتراجعون عنها ، وهي أطماع لا يخدمها السلام ولكن الاستسلام .

(جـ) إن مفهوم الغرب والشرق للسلام يختلف عما يتوقعه الناس ، وعما تعنيه كلمة السلام لغةً وفكرًا . فقد عبّر نيكسون عن مفهومهم للسلام بقوله : « لا يعني السلام حلّ المشكلات وتسويتها ولكنه يعني التعايش معها » . فالحضارة الغربية أشعلت (١٣٢) حربًا في القرن العشرين فقط تجاوز عدد ضحاياها من القتلي (١٢٠) مليونًا من البشر . فأطماع هؤلاء ممتدة لا تقف ، ولا توقف الحرب بل تشعلها هنا وهناك .

(د) إن أساس النزاع هو عدوان دول الغرب واليهود على أرض الإسلام وعلى دين الإسلام وعلى أمة الإسلام عدوانًا مستمرًا تركّز في هذه اللحظات من التاريخ بانتزاع فلسطين من أهلها وأصحابها ، من أمة الإسلام . فالسلام يكون بعودة فلسطين إلى الإسلام والمسلمين ، أو حين يدخل اليهود في دين الإسلام ، وحين يدخل غيرهم كذلك ، حتى يقف العدوان والظلم ، وحتى يخضع الناس لدين الله ، وحتى تصبح فلسطين كلها جزءًا من دار الإسلام .

(هـ) إن استمرار الظلم في الأرض يمنع قيام السلام . وإن الله أهلك الأمم الغابرة حين ارتكبت الأمة أو تلك بعض المعاصي والآثام . أما الحضارة الغربية فما تركت معصية إلا وارتكبتها ولا بابًا من أبواب الفسَاد إلا دخلته ، ولا حربًا على الإسلام إلا أشعلتها . فستمضي عليها سنن الله كما مضت على غيرها[١] .

٢٢ ـ مما تقدم يجب أن نؤكد الحقائق التالية :

(أ) إن قضية فلسطين ليست قضية الشعب الفلسطيني

وحده ، وإنما هي قضية الأُمة المسلمة كلها ، وقضية كل مسلم في الأرض حيثما كان وكل نهج لا يقوم على هذه الحقيقة لا يدرك النجاح ، لأنه خالف قاعدة ربّانيّة أساسية .

(ب) أن تكون فلسطين ملك الإسلام والمسلمين هي حاجة البشرية كلها لنشر الحق والصلاح في الأرض .

(جـ) إنها كذلك حاجة العالم الإسلامي ، فسقوطها يهدد كل قطعة في العالم الإسلامي بالإنهيار . ولا يزال صدى تصريحات الظالمين في الأرض يدوّي ليعلن عدوانهم وإفسادهم وحربهم على الإسلام .

(د) لا يستطيع كل قطر أن يجابه عدوان صفّ الظالمين وحده . فلابد من قيام صفّ الأُمة المسلمة الواحدة كالبنيان المرصوص .

(هـ) إن موائد السياسة الدولية لا مكان لها للمستجدين ولا للمستكينين ، ولن ينال هؤلاء منها إلا مضاعفة الشر والخسران .

(و) لقـد مرت قضيـة فلسطين في جميع مراحلهـا دون أن يكون لها نهج محـدد مفصل ، ودون أن يكون التصور الإيمـانيّ الذي عرضنـاه مطروحًـا وثـابتًـا في القلوب والمواقف والنهج . وإن حاول فريق الثبات تنازل قطاع واسع من الأمـة ، ومن حاول الثبات اختلطت الشعارات والولاءات .

(ز) أراد الكثيرون حلـولاً محـددة سريعـة القطـاف ، على عجلة وثورة عواطف وهيجان شعـارات ، وعلى غفوة وجهل ، وشقاق ونفاق ، وعلى جدل من أرائك الراحة والمراء والمصـالح الشخصيـة والعرض الزائل . ويكثر الجميـع اللـوم ، وقليـل من الناس يلوم نفسـه أو يحـاسبهـا . ويريـد من النـاس كافّـة أن يغيروا ما بأنفسهم ، ويظل هو يقف موقف الواعـظ الـذي لا يرى في نفسـه حـاجـة للتغيير . قتلـه الكبر والغرور وبـاء بالخسران . ولو صدق لبدأ بنفسه أولاً .

٢٣ ـ فما السبيل وأين المخرج :

(أ) إن النصر من عند الله ينزله على من يشاء .

(ب) فإمـا أن يكون الصراع بين ظـالمين فيولّي الله بعض بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون .

(جـ) وإما أن تكون فئة مسلمـة وعـدهـا الله بـالنصر إن نصرت هي الله ، وإن أوفت بعهدِها ، وإن آمنت وصـدقت ، وإن عملت الصـالحـات . وفصّـل منهـاج الله هـذه الشروط اللازمة لنزول النصر من عند الله تفصيلاً لا يدع حجّة لأحد .

(د) وسيُبْتَلى المؤمنـون ويُمَحّص مـا في قلـوبهم ، ليكشف الله ما في الصدور ، ولتقوم الحجة على كل إنسان أو تقوم له .

(هـ) وإن من أهم هـذه الشروط الإيمـانيـة قولـه سبحـانـه وتعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار ومـا لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ (هود : ١١٣) .

(و) الجهـاد اليوم فرض على المسلمين كافـة . ولكن الجهـاد نهج وخطـة ، ونيّـة وعـزيـمـة ، وتكامـل وتنـاسـق . فـإذا كان الجهاد العسكري معزولاً عن سـائر أهـداف الأُمـة المسلمـة فقـد مصدر قوته ومدده واستمراره . فلابد أن يتكامل النهج والجهد

والأهداف على أساس من منهاج الله والواقع ، وصفاء الإيمان والتوحيد ، وقوة الممارسة الإيمانية والخبرة .

(ز) إن المعركة الحقيقية تبدأ في أنفسنَا حتى تذوب كل العصبيات الجاهلية ، ويصدق الولاء ، ويصدق الإيمان والتوحيد ، ويصدق العلم بمنهاج الله والواقع .

(ح) لابد أن يعود كل مسلم ليحاسب نفسه ، وأن تعود كل حركة إسلامية لمحاسبة نفسها . لابد من وقفة صادقة ، ومراجعة ومحاسبة ، ونقد وتناصح ، حتى تمهّد الطريق إلى لقاء المؤمنين الصادقين ، الذين يرجون الله والدار الآخرة ، وليكون اللقاء على الحق الذي يرضي الله ، لا على الأهواء والشهوات والعرض الزائل .

(ط) إن لقاء المؤمنين ضروري لبناء الأمة المسلمة الواحدة . وإن بناء الأمة المسلمة الواحدة ضرورة لتحقيق الشروط التي نرجو بها رحمة الله وعفوه لينزل نصره علينا .

(ي) ونختم كلمتنا بحديث رسول الله ﷺ :

عن ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها . وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها ، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأصفر . وإني سألت ربي لأُمتي أن لا يهلكها بسَنَةٍ عامة وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم مستبيح بيضتهم . وإن ربي قال لي : إني إذا قضيت قضاءًا فإنه لا يرد . وإني أعطيت لأُمتك أن لا أُهلكهم بِسَنَةٍ عامّة ، وأن لا أُسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، أو قال من بين أقطارها ، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضًا ويسبي بعضُهم بعضًا » أخرجه الترمذي .

والحمد لله رب العالمين

كتب للمؤلف

- دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية - الطبعة الخامسة .
- الشورى وممارستها الإيمانية - الطبعة الثالثة .
- الشورى لا الديمقراطية - الطبعة الثانية .
- لقاء المؤمنين - الجزء الأول - الطبعة الرابعة .
- لقاء المؤمنين - الجزء الثاني - الطبعة الثالثة .
- منهج المؤمن بين العلم والتطبيق - الطبعة الثالثة .
- التوحيد وواقعنا المعاصر - الطبعة الأولى .
- العهد والبيعة وواقعنا المعاصر - الطبعة الأولى .
- إلى المنهج والممارسة الإيمانية - الطبعة الثالثة .
- الصحوة الإسلامية إلى أين ؟.
- الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته - الطبعة الثانية .

- الحداثة في منظور إيماني - الطبعة الثالثة .

- تقويم نظرية الحداثة - الطبعة الأُولى .

- ديوان الأرض المباركة - الطبعة الخامسة .

- ديوان موكب النور - الطبعة الثالثة .

- ديوان جراح على الدرب - الطبعة الثانية .

- ملحمة الغُربَاء - الطبعة الثانية .

- ملحمة القسطنطينية (فتحان) - الطبعة الأولى .

- ملحمة الجهاد الأفغاني - الطبعة الثالثة .

- ملحمة فلسطين - الطبعة الثالثة .

- على أبواب القدس - الطبعة الأولى .

- فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع - الطبعة الثالثة .

- دراسة انتشار الموجات الإلكترومغناطيسية المتوسطة (باللغة الإنجليزية) - الطبعة الأولى .

كتب تحت الطبع :

- النية في الإسلام وبعدها الإنساني .
- نهج الدعوة وخطة التربية والبناء .
- جهاد الدكتور عبد الله عزام بين فلسطين وأفغانستان .
- ملحمة الأقصى .
- ملحمة الهند .

فهرس الكتاب
فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع

الفسح
الرقم ٣٥٩٣ / م
التاريخ ١٩ / ٥ / ١٤١٢
الرياض - المملكة العربية السعودية



دار النحوي للنشر والتوزيع
هاتف وفاكس : ٤٠١٠٢٥٧
ص . ب ١٨٩١ - الرياض ١١٤٤١

رقم الإيداع : ٢٥٢٨ / ٩٢

دار النحوي
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الطبعة الثالثة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م

